العذب المعين

في سيرة السلطان المظفر

صلاح الدين

تأليف

أبي إسحاق محمود بن أحمد الزويد

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

دار الكتاب العالمي

العذب المعين

في سيرة السلطان المظفر

صلاح الدين

تأليف

أبي إسحاق محمود بن أحمد الزويد

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

دار الكتاب العالمي

كل الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

1444هـ - 2023م

Step Ajans Matbaa Ltd.Şti

Göztepe Mah.Bosna Cad. No: 11 Bağcilar/Istanbul Tel:0212 46808426

Sertifika No:45522

النشر والتوزيع: دار الكتاب العالمي

عنوان دار الكتاب العالمي: تركيا ـ استانبول ـ العمرانية

Yamanevler Mah. Küçüksu Cad. Bildircin Sok. No: 9 Dükkan:1
Ümraniye / Istanbul

رقم الهاتف والتواصل:

00905397626695

bilgi@kureselkitap.com

www.Kureselkitap.com

المحتويات

العنوان	الصفحة
المقدمة.	٥
أهمية قراءة التراجم والإطلاع على التاريخ.	٩
نشأة البيت الأيوبي ودخولهم السلطة.	١٣
بني أيوب الكرد.	١٧
اسمه ونسبه ووصفه.	٢٥
نشأته.	٢٩
الثناء عليه.	٣١
طلبه للعلم وعنايته بالعلم وأهله.	٣٥
عناية الأيوبيين بسماع الحديث وبناء المدارس الشرعية.	٤٥
زهده وتواضعه وعبادته.	٥٥
جهاده في سبيل الله.	٦٤
صفة اقامة الجمعة بالأقصى شرفه الله.	٧٩
ذكر ما تحصل قبل الفتح.	٨٣
ذكر ما جرت عليه حال الفرنج في خروجهم من القدس.	٨٥
ذكر أول خطبة خطب بها في بيت المقدس بعد الفتح.	٩٩
عدله.	١٠٣
الحركة العلمية في زمان الدولة الأيوبية.	١٠٧

صلاح الدين في مصر.	١٢٣
صلاح الدين وزيراً في مصر خلفاً لعمه شيركوه.	١٢٧
موجز لأهم الأحداث.	١٣١
ملخص مفيد.	١٤٧
وفاته.	١٤٩
حال أهله وأولاده بعده.	١٥٣
العوامل المساعدة لقيام الدولة الزنكية والأيوبية وتحرير المسجد الأقصى.	١٥٥
أهم أعماله وخصائص دولته.	١٦١
مفكرة الفوائد.	١٦٧

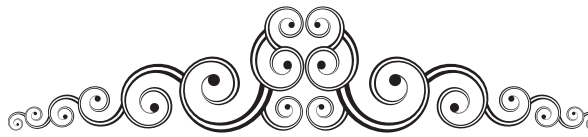

إضاءة

الإسلام لم ينتصر بقومية ولا قبلية[١]؛ وإنَّما انتصرَ بمنْ حملَ هَم الإسلامِ وإيصاله بصورتهِ الحقيقية.

فنظام الملك فارسي، ونور الدين تركي، وصلاح الدين كردي، ويوسف بن تاشفين بربري

اختلفت أعراقهم، وتنوعت أعرافهم، وتباعدت بلدانهم، وتقاربت همومهم، فخلَّد اللهُ ذكرهم، واشتهر بين النّاس خبرهم.

إنَّ الإسلام ضبط حياة البشر، وخصوصًا العرب الذين كانت تحصل الحروب في ساحتهم وبين بعضهم البعض؛ لشدة حميتهم والأنفة الزائدة عندهم فأدنى سبب يرون فيها تنقصًا لهم تسفك الدماء، وتلب نار الحرب فلا يطفؤها إلا موت واقديها، وذهاب خبر مؤججيها، كما في حرب البسوس التي كانت بين بني مرة وتغلب لأجل ناقة[٢]، وكذا

١- بل كانت الحروب بين القيسية واليمانية سبب الضعف والفوضى في بلاد الأندلس حتى جمع الله شملهم بالقائد والأمير عبد الرحمن بن معاوية ﷺ وصار للإسلام دولة بقيت قرابة الثمانية قرون.

٢- انظر: الكامل لابن الأثير (١/٤٧٤) وما بعد، و«العقد الفريد» (٦/٦٩-٧٠)، و«تاريخ ابن خلدون» (٢/٣٦٠)، و«أيام العرب في الجاهلية» (ص١١٥- ١٣٥).

داحس والغبراء[١]، وغيرها ممَّا شاع حديثه بين الناس، وعرف عن تلك الأيام الذاهبة.

ورضي الله عن أبي هريرة إذ قال: «إذا قال أهل اليمن: يا قحطان، وقالت قيس: يا نزار، رُفِعَ عنهم النصر، وسُلِّط عليهم الحديد»[٢].

فالحرب إمَّا حرب بغي وفتنة وهذه التي كانت تحدث في تلك الأزمان وهي حاصلة في زماننا على بلاد العرب والمسلمين من أهل الكفر والعصيان.

وإمَّا حرب جهاد وعدل وهي حرب المسلمين في نشر رسالة التوحيد، والتي قاتل عليها النبي ﷺ وقاتل عليها خالد والمقداد، وأبو عبيدة وعبادة بن الصامت، وقاتل عليها الخلفاء الراشدون، والفاتحين أمثال نور الدين، وصلاح الدين، ومحمد الفاتح، وابن تاشفين.

وما هذه الإضاءة إلا نفثة مهموم، وشمعة يضيئها الكاتب في زمان اشتد فيه الظلام، وعظمت فيها الغربة، يضعها في يد القارئ لعلها تنور لها عقله، وتُبصِّرَ له فكره، وتكشف عنه كربه، في أنَّ الله لطيف بعباده وكما خرج هؤلاء سيخرج في الأمة من يسير سيرهم، وهؤلاء الفاتحون لم

١- انظر: الكامل لابن الأثير (١/٥٠٠) وما بعد، و«العقد الفريد» (٦/١٧-١٨)، و«أيام العرب في الجاهلية» (ص١٩٤-٢١٨).

٢- السنن الواردة لأبي عمر الداني (٤٩٨)، وبنحوه في «الفتن» لنعيم بن حماد (١١٩٢).

يكونوا ممن يعشقون الدماء كما يُصَور بعضهم، بل هم من أهل العلم ومحبيه، وذوو رحمة وتواضع، وأهل كرمٍ ولين جانبٍ، وهم في وقت الحرب أصحاب الأخلاق العالية والصفات السامية.

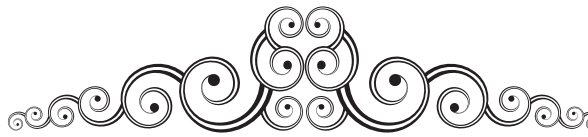

المقدمة

إنَّ الحمدَ للهِ نحمدُهُ ونستعينُ بهِ ونستغفرهُ ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله ﷺ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا . يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١]

أمَّا بعد: فإنّ أصدق الحديث كلام الله، وأحسن الهدي هدي محمّدٍ ﷺ، وشر الأمورِ محدثاتها، فإنّ كلَّ محدثةٍ بِدعة، وكلَّ بِدعةٍ ضلالة،

وكلَّ ضلالةٍ في النَّار: فهذا كتاب مختصر يحوي فصولًا ودررًا لترجمة الملك المظفر صلاح الدين، وسميته بـ«العذب المعين في سيرة الملك المظفر صلاح الدين»[١]، تعريفًا بشخصه، وطمعًا بأن يكون في الأمة من يتشبه به ويستمسك بغرزه. وسيرته رحمه الله كتبت فيها كتب، جلُّها مطولة[٢]، وبعضها مسطورٌ في بطون المجلدات كالتواريخ والسير، فأردت أن أجمع من تلك الكتب ما يتضمن الحديث عن سيرته بالاختصار الذي لا يكون به الإخلال، ولا يحصل معه الإملال.

وما أحوج الأمة إلى قائد يقودها كالقائد المظفر صلاح الدين في ظل واقعنا الحاضر الذي تشهد فيه الأمة من الضعف والهوان، فكأنَّ الحال ما قيل:

أحلَّ الكُفرُ بالإسلَامِ ضيْمَا ... يطُولُ عليْهِ للدِّينِ النّحِيبُ
فَحقٌّ ضَائعٌ وحمًى مُبْاحُ ... وسيفٌ قاطعٌ ودمٌ صبيبُ
وكَمْ مِنْ مُسْلِمٍ أمْسَى سليبًا ... ومُسلمة لها حرمٌ سليبُ[٣]

١- ولعلَّ الله ييسر جمع كتاب مختصر في المعارك التي خاضها القائد المظفر، وكتاب (ما قيل من الأشعار في الدولتين النورية والصلاحيَّة، ودوره في النهوض ورفع الهمم، وتخليد صور المعارك).

٢- مثل (مفرج الكروب في أخبار بني أيوب)، و(الروضتين في أخبار الدولتين)، و(البرق الشامي) (والفتح القسي) وغيرها.

٣- النجوم الزاهرة لابن تغري بردي (١٥١/٥).

أيتها الأمة العربية! التي كتب الله لباديتها وصحرائها الخلود، مَن الذي سمع العالم منه نداء «لا قيصر ولا كسرى» لأوَّلِ مرة في التَّاريخ، ومن الذي أكرمه الله بالسبق إلى قراءة القرآن؟ من الذي أطلعه على سر التَّوحيد، فنادى بأعلى صوته: (لا إله إلا الله)، وما هي البقعة التي اشتعل فيها هذا السراج الذي أضاء به العالم؟

هل العلم والحكمة إلا فتات مائدتكم، وهل قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ إلا وصف حالكم، إن نفس ذلك الأمي أعاد على هذه الصحراء الخصب والنمو، فأنبتت الأزهار والرياحين، إنَّ الحرية نشأت في أحضانه، وإن حاضر الشعوب ليس إلا وليد أمسه، إنَّ الجسد البشري كان بلا قلب وروح، فأعطاه القلب والروح، وكشف اللثام عن جمال وجهه، إنَّه حطم كل صنم قديم، وأفاض الحياة على غصن ذاوٍ من أغصانِ العلوم والمدنية، وأنجب أبطالًا وقادةً مؤمنين، أقاموا المعارك الفاصلة بين الحق والباطل، فتارةً يدوي الأذان في ساحة الحرب، وتارة تتجلى الآذان بقراءة «الصافات» بين صليل السيوف وصهيل الخيول، إنَّ سيف المغوار كصلاح الدين الأيوبي، ونظرة الزاهد الأواب

كأبي يزيد البسطامي[١]، مفتاحان لكنوز الدنيا والاخرة[٢].

وكتابنا هذا جعلته على أبواب مختصرة، وفصول ميسرة، يحصل بها النفع والفائدة، والله الموفق.

١- قال الذهبي في «سير أعلام النبلاء» (٨٦/١٣) سلطان العارفين، أبو يزيد طيفور بن عيسى بن شروسان البسطامي، أحد الزهاد، أخو الزاهدين: آدم وعلي، وكان جدهم شروسان مجوسيًا، فأسلم.
من كلامه: «هذا فرحي بك وأنا أخافُك، فكيف فرحي بك إذا أمِنتُك؟ ليس العجبُ من حبي لك، وأنا عبد فقير، إنَّما العجبُ من حبك لي، وأنت ملك قدير».
٢- روائع إقبال (ص١١٩-١٢٠) ط: ابن كثير.

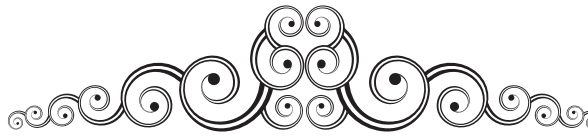

أهمية قراءة التراجم والاطلاع على التاريخ.

إنَّ النَّاظرَ في تصانيفِ العُلماءِ في التّراجم والسِّيرِ، وكُتبِ الرِّجالِ، يدرك جليًّا أنَّ هذه التّصانيفَ لها بواعثُ وأسبابٌ كثيرةٌ، وأشهرُها وأنفعُها هو التّشبُّه بهؤلاءِ القومِ في صلاحهم، وعلمِهم، وجهادِهم، وصبرِهم، وفي كلّ أحوالهم، ممَّا يكون لذلك أثرًا كبيرًا وبالغًا فيمن يأتي من بعدهم[١]. وقد أشار ابن خلدون لذلك في «تاريخه» بقوله: «البشرُ يأخذون معارفَهم وأخلاقَهم وما يَنتحلون به من المذاهب والفضائل: تارةً عِلمًا وتعليمًا وإلقاءً، وتارةً محاكاةً وتلقينًا بالمباشرة»[٢].

شابكتُهم متبرِّكًا بأكفِّهم ... إذ شابكوا كفًّا على كريمهْ

ولربّما يكفي المحُبّ تعلّلًا ... آثارُهم ويعدُّ ذاكَ غَنِيَمه[٣]

وهذا النوويُّ يحثُّ على معرفةِ وفضل الاطّلاع على تراجمِ أهل العلمِ والفضل، فيقولُ: «اعلم أنَّ لمعرفة أسماءِ الرّجالِ، وأحوالِهم، وأقوالِهم،

١- انظر: مقدمة ترتيب المدارك (١/٢٣).

٢- تاريخ ابن خلدون «فصل: في أن الرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة مزيد كمال في التعلم» (١/٧٤٣-٧٤٤).

٣- الإفادات والإنشادات للشاطبي (ص٩٢) ط: الرسالة، و«رسالة المسلسلات» للكتاني (ص٥٢)، و«بغية الوعاة» (١/٢٠٠).

ومراتبِهم، فوائدُ كثيرةٌ: منها: معرفةُ مناقبِهم، وأحوالِهم، فيتأدّب بآدابِهم، ويقتبس المحاسنَ من آثارهم.

ومنها: مراتبُهم وأعصارُهم، فينزلون مَنازلهم، ولا يقصر بالعالي في الجلالةّ عن درجته، ولا يرفعُ غيره عن مرتبته، وقد قال اللهُ تعالى: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦].

ومنها: أنَّهم أئمتُنا وأسلافُنا، كالوالدين لنا، وأجدى علينا في مصالح آخرتنا التي هي دارُ قرارنا، وأنصحُ لنا فيما هو أعودُ علينا، فيقبحُ بنا أنْ نجهلهُم، وأن نهملَ معرفتهم...»[١].

مجالسُهم مِثلُ الرِّياضِ أنيقةٌ لقدْ طابَ منها الرِّيحُ واللَّونُ والطَّعمُ

والأمة اليوم تعيش انفصالاً عن التاريخ، وجهلاً بماضيها التليد، شبابها يتيم، ورجالها حائر بليد، لا تشاؤمًا؛ ولكن وصفًا للحال.

ليس اليتيمُ الذي قد مات والدُه إنَّ اليتيمَ يتيمُ العلمِ والأدبِ[٢]

إنَّنا معشر المسلمين بحاجة ماسة، وبالخصوص طلاب العلم أن يكون لدينا اطلاع ومعرفة لتاريخ الفاتحين، فهو مصدر من مصادر عزنا وفخارنا، فبه يجاري السابق اللاحق بالأخلاق والسلوك، ويتشبه بهم في صبرهم وبذلهم،

١- تهذيب الأسماء واللغات (١/١٠-١١)
٢- الآداب الشرعيَّة (١/٢٢٤).

ومن لا يقرأ الماضي لن يستطيع أن يبني للمستقبل، ومن لا يعرف التاريخ كيف له أن يسوغه واقع حال تعيشه الأمة[١]، لا سيَّما في ظل الواقع الحالي.

فـ«**يا شباب العرب، إنَّ في تاريخكم أروع أمثلة البطولة والسمو الإنساني، فلا تكتفوا بقراءة التاريخ، ولكن اعملوا على أن تكتبوه بأعمالكم**»[٢].

ومن قرأ في التاريخ أضاف عمرًا إلى عمره، وتجربة إلى تجاربه في الحياة، وعلمًا إلى علمه، ومعرفةً إلى معرفته.

لَيْسَ بِإِنْسَان وَلَا عَاقل ... من لَا يعي التَّارِيخ فِي صَدره
وَمن روى أَخْبَار من قد مضى ... أضَاف أعمارًا إِلَى عمره[٣]

١- قال ابن الأثير في «الكامل في التاريخ» (٢٣٣/٨). عن الملك ألب أرسلان بإنَّه: «كان كثيرًا ما يُقرأ عليه تواريخَ الملوكِ وآدابهم، وأحكام الشَّريعةِ، ولما اشتهر بين الملوك حسن سيرته، ومحافظته على عهودهِ، أذعنوا له بالطاعةِ والموافقة بعد الامتناع، وحضروا عنده من أقاصي ما وراء النَّهر إلى أقصى الشام». وهكذا كان السلطان المظفر كما قال العماد الأصفهاني في «الفتح القسي» (ص٣٤٣): «وكان يأمرني بكتابة كتب الملوك وأصحاب الأطراف عن كتبهم في حالتي سلمهم وحربهم. وهي تشتمل على أسباب متنوعة، وآراب متفرعة، بحسب الحوادث المتجددة، والبواعث المتمهدة. فإذا قلت له: بماذا اكتب، وما أخطب؟ فيقول: أنت أعرف وبحسب ما تعلم من حالنا تتصرف».

٢- رجال من التاريخ للطنطاوي (ص٣٥٢).

٣- الاستقصا في أخبار المغرب الأقصى (٦٢/١).

وهو كما قال الإمام الشافعي رحمه الله: «من علِم التاريخ زاد عقله»[١].

وحكى بدر الدين القرافي عنه أنَّه قال ما معناه: «دأبت في قراءة علم التاريخ كذا وكذا سنة، وما قرأته إلا لأستعين به على الفقه»[٢].

والعاقل من يفطن لمثل هذا فيبادر متعلمًا ثم عاملًا، كما قال ابن المبارك: «أول العلم النيَّة، ثمَّ الاستماع، ثمَّ الفهم، ثمَّ الحفظ، ثمَّ العمل، ثمَّ النشر»[٣].

فالنظر في التواريخ وأخبار الأمم والشعوب والأجيال التي انصرمت، وما مرَّ عليها من بؤس وسعادة، وحروب طاحنة، وفتن وملاحم؛ تفكَّرْ في ذلك كله؛ فالعقل ينمو ويكبُرُ بما يحصَّله من التجارب، والنظرُ فيما أصاب النَّاس مدعاة للتحرز، وصيانةً من الغفلة، وعصمةً من الزللِ أن يقع فيما وقعوا فيه، فيصيبه ما أصابهم؛ فعلى العاقلِ أن يُعملَ عقله، ويدرك بفكره حتى يحسم الداء قبل أن يبتلى به، ويدفع الأمر قبل أن يقع فيه، أمَّا من لا نظر له ولا فكر عنده، فهذا لا عقل له[٤].

١- عجائب الآثار للجبرتي (٩/١٠).
٢- الاستقصا في أخبار المغرب الأقصى (٥٩/١).
٣- جامع بيان العلم لابن عبد البر (٧٥٨).
٤- أعمال القلوب (٣٠٧/١).

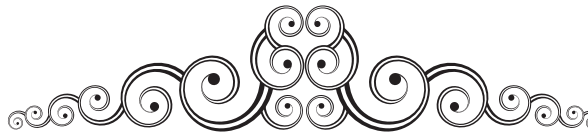

نشأة البيت الأيوبي ودخولهم السلطة

كان أسد الدين وأخوه نجم الدين أيوب -وهو الأكبر- ابنا شاذي، من بلد دُوِيْن؛ وهي بلدةٌ من آخر بلاد أذربيجان ممَّا يلي الرُّوم، وأصلهما من الأكراد الروادية[١]. وهذا القبيل من أشرف الأكراد. قدما العراق وخدما مجاهد الدين بهروز، وهو شِحنة العراق[٢]، فرأى من نجم الدين عقلًا ورأيًا وحُسْنَ سيرةٍ فجعله دُزْدَاراً[٣] بتكريت، وهي له، فسار إليها ومعه أخوه أسد الدين.

فلمَّا انهزم أتابك زنكي الشهيد؛ والد نور الدين بالعراق من قراجة السَّاقي؛ وهو أتابك داود بن السلطان محمود، وذلك زمن المسترشد بالله، سنة ستٍّ وعشرين وخمس مئة، وصل إلى تكريت، فخدمهُ نجم الدين أيوب، وأقام له السفن، فعبر دِجلة هناك، وتبِعه أصحابه فأحسن نجم الدين صحبتهم وسيرهم.

١- بطن من الهذبانية، وهي قبيلة كبيرة من الأكراد. وسيأتي الحديث عنه من كلام ابن خلكان.
٢- الشحنة: مسؤول عسكري، من مهامه الحفاظ على الأمن.
٣- حافظ القلعة أو حافظ الحصن.

ثم إنَّ أسدَ الدين قتل إنسانًا نصرانيًا بتكريت لملاحاةٍ جرت بينهما، فأرسل مجاهد الدين إليه وإلى أخيه نجم الدين، فأخرجهما من تكريت[١].

وقيل: إنَّ أيوب كان يحسن الرَّماية، فرمى شخصًا من مماليك بِهْرُوز بسهمٍ فقتله، فخشي على نفسه، فتوجَّه نحو الشام وخدم مع زنكي.

وقيل: لما قتلَ أسدُ الدين شيركُوه النصراني و-كان عزيزًا عند بهروز- هرب إلى الموصل، والتحق أيوب به.

ثمَّ إنَّ أيوب وشيركوه قصدا أتابك الشهيد فأحسن إليهما وعرف لهما خدمتهما وأقطعهما إقطاعًا حسناً، وصارا من جُملةِ جُنْده، فلمَّا فتح حصن بعلبك جعل نجم الدين دزدارا فيه. فلمَّا قُتِل الشهيد حَصر عسكرُ دمشق نجم الدين، فأرسل إلى سيف الدين غازي -وقد قام بالملك بعد والده- ينهي الحال إليه، فلم يتفرَّغ لبعلبك، وضاق الأمر على من بها، وخاف نجم الدين أن تؤخذ عنوة وينالَه أذىً، فأرسل في تسليم القلعة، وطلب إقطاعًا ذكره، فأُجيب إلى ذلك، وحلف له صاحب دمشق عليه، وسلَّم القلعة، ووفى له بما حلف عليه من الإقطاع والتقدُّم، وصار عنده من أكابر الأمراء.

واتصل أخوه أسد الدين شِيركُوه بالخدمة النُّورية بعد قتل الشَّهيد -وكان

١- انظر: التاريخ الباهر (ص١١٩)

يخدمه في أيام والده- فقرَّبه نور الدين وأقطعه، ورأى منه في حروبه ومشاهده آثارًا يعجزُ عنها غيرُه لشجاعته وجُرأته، فزاده إقطاعًا وقربا حتى صارت له حمص والرحبة وغيرهما؛ وجعله مقدَّم عسكره.

فلمَّا تعلَّقت الهمة النُّورية بملك دمشق أمر أسدَ الدين، فراسل أخاه نجم الدين -وهو بها- في ذلك، وطلب منه المساعدة على فتحها، فأجاب إلى ما يُرادُ منه، وطلب هو وأسد الدين من نور الدين كثيرًا من الإقطاع والأملاك ببلد دمشق وغيرها، فبذل لهما ما طلبا منه، وحلف لهما عليه، ووفَّى لهما لما ملكها، وصارا عنده في أعلى المنازل لاسيَّما نجم الدين، فإنَّ جميعَ الأمراء كانوا لا يقعدون عند نور الدين إلا أن يأمرهم أو أحدهم بذلك، إلا نجم الدين فإنَّه كان إذا دخل إليه قعد من غير أن يؤمر بذلك[١].

١- الروضتين (١/٤٠٣-٤٠٦)، و«وفيات الأعيان» (٧/١٤٢-١٤٣)، وانظر: الروضتين أيضًا (٤/٣٨١ وما بعد).

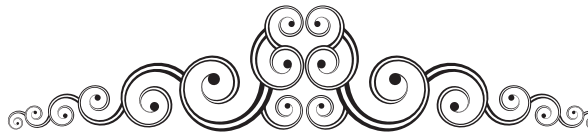

بني أيوب الكرد[١].

للأكراد تاريخ في الأمة الإسلاميَّة، ومجد تليد، فهم فرسان دولة بني زنكي، وقادة وأمراء دولة بني أيوب، وهم كما قال العماد الكاتب:

وَكأَنَّما الأَكْرادُ فَوْقَ جِيادِها عِقْبانُ مُلْحَمَةٍ عَلَى عِقْبانِ[٢]

ودولة بني أيوب، أول دولة الأكراد، كما قاله ابن العماد[٣]. وذلك أنَّ بني أيوب لما ملكوا مصر والشام، واستقل بها كبيرهم صلاح الدين، وشغل بالجهاد وانتزاع القلاع والحصون من أيدي الفرنج الذين ملكوها بالسواحل، وكان قليل العصابة، إنَّما كان عشيرة من الكرد يعرفون ببني هذان، وهم قليلون، وإنَّما كثر منهم جماعة المسلمين، بهمة الجهاد الذي كان صلاح الدين يدعو إليه، فعظمت عصابته بالمسلمين، وأسمع داعيه، ونصر الله الدين على يده. وانتزع السواحل كلها من أيدي نصارى الفرنج، حتى مسجد بيت المقدس، فإنَّهم كانوا ملكوه وأفحشوا فيه بالقتل

١- الواضح أنَّ كلمة كردي تعني: الشجاع الجسور والغيور، ويعتقد البعض أنَّها خلاف المعنى الذي تحمله المعاجم العربية لكلمة كردي بمعنى المبعد، والمطرود قسرًا. نقلًا من «تاريخ الأكراد» لطقوش (ص١٣).

٢- خريدة القصر (٢/٥٧٤)

٣- كما في «شذرات الذهب» (٦/٤٨٨)، وانظر: «صبح الأعشى» (٣/٤٩٥).

والسبي، فأذهب الله هذه الوصمة على يد صلاح الدين[١]. والتركمان والأكراد كثروا جدًا في الشام على عهد الدولتين النوريَّة والصلاحيَّة، وكان قسم عظيم من جند المسلمين إذ ذاك منهم، فتديروا الأقاليم واستعربوا[٢].

والدول الأيوبية والكرد فيهم من الخير والنصر للدين، وقمع الأعداء المعاندين، كما قال عبد الملك بن حسين بن عبد الملك العصامي المكي (ت ١١١١هـ) فِي وصف الدولة الأيوبية: «السُّنِّيّةِ السَّنيّة هم أَصْحَاب الفتوحات الجليلة الجليّة الكاشفون عَن الْإِسْلَام وَالْمُسْلِمين كلَّ كربَةٍ وبلية»[١].

وقال محمد أمين زكي: «وهذه الدولة بحق أعظم الدول التي أسسها الكرد»[٤]، والمعروف أنَّ الأكراد يحملون صفات «الشجاعة، والغيرة، والوفاء»[٥].

وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله عن الكردِ بأنَّهم: «ناس موصوفون بالشجاعةِ»[٦].

١- رحلة ابن خلدون (ص٢٤٧).
٢- خطط الشام لمحمد كرد علي (٣١/١).
١- سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي (٤/٤).
٤- خلاصة تاريخ الكرد وكردستان (٣٧٩/٢).
٥- تاريخ الأكراد (ص١٣).
٦- تبصير المنتبه (٣/١٢١٣).

ومن هؤلاء: الفقيه عيسى بن محمد الهكاري[١] الكردي، وكان يلبس زي الأجناد، ويعتم بعمائم الفقهاء، فيجمع بين اللباسين، وكان أحد الأمراء بالدولة الصلاحية، كبير القدر وافر الحرمة معولاً عليه في الآراء والمشورات، وكان في مبدأ أمره يشتغل في الفقه بالمدرسة الزجاجية بمدينة حلب، فاتصل بالأمير أسد الدين شيركوه، عم السلطان صلاح الدين، وصار إمامه يصلي به الفرائض الخمس. ولما توجه أسد الدين إلى الديار المصرية، وتولى الوزارة كان في صحبته[٢].

وأخوه الفقيه ظهير الدين الهكاري، وكان والي البيت المقدس قد جمع بين الشجاعة والعلم والدين، قتل يوم المصاف بعكا شهيدًا مقبلًا[٣].

ومنهم: حسام الدين أبو الهيجاء. من أكابر أمراء السلطان المظفر، وهو من الأكراد الحكمية من بلد إربل، وقتل من الفرنج جماعة كبيرة[٤].

١- و(الهكاري): بفتح الهاء وتشديد الكاف وبعد الألف راء، هذه النسبة إلى قبيلة من الأكراد لهم معاقل وحصون وقرى من بلاد الموصل من جهتها الشرقية. كما في «وفيات الأعيان» (٣/٣٤٥).

٢- وفيات الأعيان (٣/٤٩٧). وللأمانة العلمية، ذكر الأستاذ ناجي معروف ﷺ في كتاب لطيف بعنوان «علماء ينسبون إلى مدن أعجمية وهم من أرومة عربية» (ص١٦) «الأكراد الهكارية الذين يسكنون في منطقة حكاري اليوم: هم أمويون قرشيون ينتسبون إلى عبد شمس، وظهر منهم عدد كبير من العلماء أحدهم شيخ الإسلام أبو الحسن الهكاري علي بن أحمد القرشي».

٣- الكامل لابن الأثير (أحداث سنة ٥٨٥هـ) (١٠/٧٣).

٤- نفس المصدر (١٠/٧١).

ومنهم: أبو عبد الله الهَكَّاري، الأمير بدر الدين. استُشهِد على الطُّور، وأبلى في ذلك اليوم بلاءً حسنًا، وكان من المجاهدين، له المواقفُ المشهورة في قتال الفرنج، وكان من أكابر أمراء المعَظَّم، كان يستشيره، ويصدر عن رأيه، ويثق به لصلاحه ودينه، وكان سَمحًا، لطيفًا، دَيِّنًا، ورِعًا، بارًّا بأهله وبالفقراء والمساكين، كثيرَ الصَّدقات، دائم الصِّلات، بني بالقُدس مدرسةً للشَّافعية، ووقفَ عليها الأوقاف، وبنى مسجدًا قريبًا من الخليل عليه السَّلام عند قبر يونس عليه السَّلام على قارعة الطَّريق، وكان ملازمًا لمجالسي بالقدس، وكان يتمنَّى الشَّهادة دائمًا، ويقول: «ما أحسنَ وَقْعَ سيوفِ الكُفَّار على أَنْفي وَوَجْهي». فاستجابَ الله له دعاءه، ورزقه الشهادة، ونُقِلَ من الطُّور إلى القُدْس[١].

ومنهم: درباس الكردي. ففي أحداث سنة (٥٨٣ هـ) والتي كان بها معركة حطين، أُسِرَ من الملوك: كاي وأخوه جفري وإبرنس الكرك، والهنفري، وصاحب جُبيل وبيروت وصيدا، ومقدم الداوية والإسبتار وغيرهم، والذي أَسَرَ الملك دِرْباسُ الكُرْدي[٢].

ومنهم: الأمير أبو شجاع عاصم بن أبي النجم الكردي، من أعيان

١- مرآة الزمان (٢٢/٢٢٦).

٢- انظر: مرآة الزمان (٢١/٣١٧-٣١٨)، و«تاريخ الإسلام» (٤١/٢٠)، و«النجوم الزاهرة» (١/٤٠٨).

الأكراد الجاوانية. وكان رجلاً من الرجال وبطلاً من الأبطال، أسدٌ قهر الآساد، وذو نجدة طلاع أنجاد[١].

ومنهم: الأمير سيف الدين محمد بن عثمان ابن علكان الكردي (ت ٦٣٧ هـ) كان شابًا، دينًا، خيّرًا.

قال المنذري: هو من بيت الإمرة والتقدم، ويذكر عنه تحفظ في دينه، ومحبة لأهل الخير، قتل مقبلاً غير مدبرٍ بظاهر غزة. وسنه إذ ذاك ثلاثون سنة[٢].

وفي الكرد علماء كثر، منهم: مهدي بن ميمون أبو يحيى الكردي الأزدي (ت ١٧٢هـ). حدث عنه: يحيى القطان، وابن مهدي، وعارم، وأبو الوليد، وآخرون.

وثقه: شعبة، وأحمد بن حنبل.

وقال ابن سعد: «كان كرديًا»[٣].

ومنهم: الفقيه الشافعي محمد بن علي بن عبد الله بن أحمد بن حمدان أبو سعيد الجاواني، الحلوي العراقي.

تفقَّه ببغداد على الغزالي والشاشي وإلكيا[٤].

١- خريدة القصر (٢/٤٢١-٤٢٢)

٢- التكملة لوفيات النقلة للمنذري(٣/٥٣٠)، و«تاريخ الإسلام» (١٤/٢٥٣).

٣- سير أعلام النبلاء للذهبي (٨/١٠-١١).

٤- قال السبكي في «طبقات الشافعية» (٦/٦٧): «وجاوان قبيلة من الأكراد سكنوا

ومنهم: الحافظ الشهير ابن الصلاح الشهرزوري (ت ٦٤٣هـ).

ومنهم: الحافظ العراقي أبو الفضل زين الدين عبد الرحيم بن الحسين العراقي أصلًا، المصري مولدة (ت ٨٠٦هـ). وكلاهما من (إربل) من قرية (شرخان).

وللحافظ العراقي بنت اسمها جويرية تعرف بأم الكرم، صالحة محبة للحديث، لها سماعات وإجازات[١]، وكذا ابنه أبو زرعة.

ومنهم: يوسف بن بابا بن عمر بن محمود بن رستم الجمال الكُدواني الكردي الشافعي.

قال السخاوي: إنسان خيَّر لازمني بمكة والمدينة فأخذ عنِّي أشياء دراية ورواية وكتبت له إجازة[٢].

ومنهم: الشيخ الإمام إبراهيم بن حسن بن شهاب الدين الكوراني الشهرزوري الشهراني الكردي الشافعي (ت ١١٠١ هـ)، من مؤلفاته: (مسلك الارشاد إلى الأحاديث الواردة في الجهاد) و(إنباه الانباه في إعرابِ لا إله إلا الله)، و(إتحاف الخلف بتحقيقِ مذهب السلف)[٣].

ومنهم: الأستاذ محمد كرد علي (ت ١٣٧٢ هـ)، رئيس المجمع العلمي

الحلة»، وقال: «قال ابن النجار: بلغني أن مولده في سنة ثمان وستين وأربعمائة ولم يؤرخ وفاته»، وانظر: «لب اللباب في تحرير الأنساب» للسيوطي (٣٥/١).

١- الضوء اللامع للسخاوي (١٨/٢).

٢- الضوء اللامع (٨/٣) و(الكُدواني) بضم الكاف ثم دال مهملة نسبة لقبيلة من الأكراد.

٣- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع للشوكاني (١١/١).

العربيّ بدمشق، ومؤسسه، وصاحب مجلة (المقتبس) والمؤلفات الكثيرة. وأحد كبار الكتّاب. أصله من أكراد السليمانية (من أعمال الموصل) ومولده ووفاته في دمشق[١].

ومنهم: الشيخ حمدي عبد المجيد السلفي (ت ١٤٣٣هـ) من قرية المصطفاوية التابعة لمدينة المالكية والواقعة ضمن أراضي الجزيرة الفراتية (محافظة الحسكة السورية حاليًا) مِنْ تحقيقاته: (المعجم الكبير للطبراني) طبع في أكثر من عشرين مجلدًا، و(مسند الشاميين) للطبراني، و (مسند الشهاب)، و(جامع التحصيل في أحكام المراسيل) للعلائي. و (الأحكام الوسطى) لعبد الحق الإشبيلي بالاشتراك مع الشيخ صبحي السامرائي، و(فوائد تمام) لتمام الرازي، و(خلاصة البدر المنير) لابن الملقن طبع في مجلدين في مكتبة الرشد، و (الأمالي المطلقة) للحافظ ابن حجر، و (نتائج الأفكار) للحافظ ابن حجر، و(تذكرة الحفاظ) لابن طاهر المقدسي. والكثير من التحقيقات المباركة ﵀ وغفر له، وإنَّما توسعت بذكر ما حقق لأهميتها، ولبيان مكانته، فهو مغمور لا يعرفه الكثير، وما ضره ذلك ويعرفه العلي القدير.

ومنهم: سعيد النورسي، شارك في الجهاد في جبهة القفقاس في الحرب العالمية الأولى، وأسره الروس سنتين وأربعة أشهر، وأفلت من الأسر أثناء

١- الأعلام للزركلي (٦/٢٠٢-٢٠٣).

فوض الثورة الشيوعية البلشفية سنة (١٩١٧م)، وعاد إلى بلاده فاستقبل استقبال الأبطال من الخليفة وشيخ الإسلام والقائد العام وطلبة العلوم الشرعية، ومنح وسام الحرب[١].

ومنهم زهاد وعبَّاد، أمثال: جاكير محمد بن دشم الكردي الزاهد، من كبار مشايخ العراق، صاحب أحوال وتأله وتعبد، صحب الشيخ عليا الهيتي، وغيره[٢].

ومنهم: علي بن أحمد بن يوسف الهكاري، الملقب شيخ الإسلام (ت ٤٣٦هـ)، كان كثير الخير والعبادة، طاف البلاد، واجتمع بالعلماء والمشايخ، وأخذ عنهم الحديث[٣].

وأمَّا نساء الكرد فمنهن العالمات، والمحدثات، وانظر كتاب «المرأة الكردية في التاريخ الإسلامي» لبلدينا الأستاذ محمد خير رمضان يوسف وفقه الله وثبته.

وما ذكرناه عن بعض أهل الخير والصلاح، وأرباب العلم والجهاد، فإنَّما هو غيض من فيض، ولعلَّ الله أن ييسر لي أن أفرد أعلام الأكراد بكتاب لطيف، والله الموفق المعين.

١- الصفات التي انضجت دعوة النورسي وفكره (ص٦-٨) مع ما انتقد عليه الشطحات والمخالفات التي وقع بها، وانظر: «اللطائف والظرائف فيما لأيا صوفيا من الوظائف» (٤٤٧/١) ط: دار اللؤلؤة.

٢- سير أعلام النبلاء (١٠/٨-١١).

٣- طبقات الأولياء لابن الملقن (ص٧٣-٧٤)، و«مرآة الزمان» (٤٥٤/١٩).

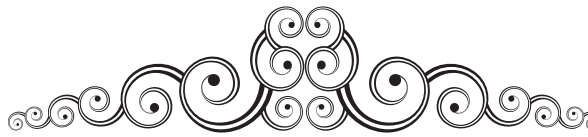

اسمه ونسبه ووصفه

هو السلطان الملك النَّاصر التقيُّ النقيُّ، العالم الذكيُّ، العادل الزكيُّ، فاتح الفتوح، بركة أهل زمانه، أبو المظفر يوسف بن أيوب بن شاذي بن مروان، الدويني الأصل، التكريتي المولد، الملقب بالملك النَّاصرِ صلاح الدين[١]، صاحبُ الدَّيار المصريَّة، والبلاد الشاميَّة، والفراتيَّة، واليمنيَّة. وكانت دولته نيفًا وعشرين سنة[٢]. وهمْ وإن كانوا يدينونَ بطاعةِ خلفاء بني العبّاس فهم ملوكٌ مستقلّون، وفي دولتِهم زادَ ارتفاع قدرَ مصر وملكها[٣].

ووالده القائد نجم الدِّين أيوب[٤] بن شاذي السعدي، وعمه شيركوه من

١- يقول ابن جبير في «رحلته» (ص٢١) «سبحان الذي جعله صلاح دينه كاسمه».

٢- سير أعلام النبلاء (٢٧٩/٢١).

٣- صبح الأعشى (٤٩٥/٣).

٤- أيوب بن شاذي بن مروان، الملك الأفضل نجم الدين، وإليه نسبة الأيوبيين كافة. مدة وولي قلعة بعلبكّ، ثم انتقل إلى دمشق فأقام في خدمة نور الدين محمود بن زنكي. وولي ابنه صلاح الدين وزارة الديار المصرية في أيام العاضد، فدعاه إليه، فانتقل أيوب إلى مصر سنة ٥٦٥هـ وخرج العاضد للقائه إكراما لولده صلاح الدين. ولما انفرد صلاح الدين بالسلطنة أقطعه الإسكندرية والبحيرة إلى أن مات من سقطة عن فرسه. وكان خيّرًا جوادًا عاقلًا، فيه دهاء. رأى من أولاده عدة ملوك حتى صار يقال له: (أبو الملوك). مات ودفن في القاهرة ثم نقل إلى المدينة المنورة كما في «الأعلام» (٣٨/٢).

خيرة القادة وأفضلهم في دولة عماد الدين وابنه نور الدين.

قال ابن خلكان: «اتفق أهل التاريخ على أنَّ أباه وأهله من دُوِيْن، وهي بلدة في آخر عمل أذربيجان من جهة إيران وبلاد الكرج، وأنهم أكراد رَوَادِّية، والروادية: بطن من الهَذَبانِيَّة، وهي قبيلة كبيرة من الأكراد.

وشاذي أخذ ولديه أسد الدين شيركوه ونجم الدين أيوب وخرج بهما إلى بغداد، ومن هناك نزلوا تكريت، ومات شاذي بها، وعلى قبره قبة داخل البلد»[١].

ويقال: إنَّ مروان من أولاد خُلفاء بني أمية[٢]. وأنكر طائفةٌ من أولادِهِ أن يكونوا أكرادًا، وقالوا: «بل نحنُ عرب نزلنا فيهم، وتزوجنا منهم»[٣].

١- وفيات الأعيان (٧/١٣٩-١٤٠).

٢- مرآة الزمان (٢٢/١٨)، و«السلوك لمعرفة دول الملوك» (١/١٤٨) وأنكر ذلك العادل أبو بكر.

٣- سير أعلام النبلاء (ترجمة: أسد الدِّين شيركوه) (٢٠/٥٨٨)، و«مفرج الكروب في أخبار بني أيوب» (١/٣).

[ها هنا مسألة]، وهي: أنَّ بعضهم يُرجع أصول الأكراد في العموم للعرب، كما هو رأي المسعودي في «مروج الذهب» (٢/١٢٢-١٢٣)، والمقريزي في «السلوك في معرفة دولة الملوك» (١/١٠١)، وأبو الفداء في تاريخه المسمى «المختصر في أخبار البشر» (١/١٣٣) إذ قال: «قيل: أنَّ الكرد من العرب ثم تَّنبطوا، وقيل: إنَّهم أعراب العجم»، وهذا موجود في «تاريخ الكرد» للأستاذ سهيل طقوش (ص١٦- ١٨) فلينظر.

وقد قيل:

وَلا تحسَب الأكرادَ أبناءَ فارس ولكنَّهُم أبنَاءُ عمْرُو ابْن عَامِر

وأحضر النسب إلى الملك المعظم شرف الدين عيسى، بن الملك العادل -صاحب دمشق-، فسمع النسب عليه، وأسمعه ولده الملك الناصر صلاح الدين داود، في سنة تسع عشرة وستمائة.

والنسب هو هذا: «أيوب، بن شاذي، بن مروان، بن أبي علي، بن عثيرة، بن الحسن، ابن علي، بن أحمد بن علي، بن عبد العزيز، بن هدبة، بن الحصين، ابن الحرث، بن سنان، بن عمرو، بن مرّة، بن عوف».

ثمَّ اختلف النسابون بعد ذلك، فالأكثرون قالوا: «عوف، بن سعد، بن ذبيان، بن بغيض، بن ريث، بن غطفان، بن سعد، ابن قيس بن عيلان، بن إلياس، بن مضر، بن نزار، بن معدّ، ابن عدنان».

وبعضهم قالوا: «عوف، بن لؤي، بن غالب، بن فهر، بن مالك، بن النضر -وهو الذي ينتمي إليه نسب قريش كلهم- ابن كنانة، بن خزيمة، بن مدركة، بن إلياس، بن مضر، ابن نزار، بن معدّ، بن عدنان».

والنسابون مختلفون فيما وراء ذلك، أي عدنان[1].

١- مفرج الكروب في أخبار بني أيوب (١/٥-٦).

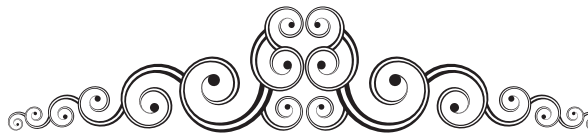

نشأته

كانت والدة السلطان تخبر أنَّها أُتيت في نومها؛ وهي حامل بالسُّلطان، فقيل لها: «إنَّ في بطنك سيفًا من سيوف الله تعالى»[١].

ولما اجتمع صلاح الدين بوالده في دار الوزارة، وقعدا على طراحةٍ واحدةٍ؛ ذكر نجم الدين: أنَّ صلاح الدين ولد ليلة إخراجه من قلعة تكريت، فقال: تشاءمت له، وتطيّرت لما جري عليَّ، وكان معي كاتبٌ نصرانيٌّ، فقال: مولايّ من يدريك أنّ هذا الطفل يكون ملكاً عظيم الصَّيت جليل المقدار! قال: فعطفني كلامه عليه. فتعجبت الجماعة من هذا الاتفاق[٢].

قدم به أبوه إلى دمشق وهو رضيع، فناب أبوه ببعلبك لما أخذها أتابك زنكي في سنة ثلاث وثلاثين.

وقيل: إنَّ أباه خرج من تكريت في الليلة التي ولد فيها صلاح الدين؛ فتطيروا به، وقال بعضهم: لعلَّ فيه الخيرة وأنتم لا تعلمون فكان كذلك[٣].

١- الروضتين (٣/٣٠٧).
٢- عيون الروضتين (١/٣٠٤).
٣- طبقات الشافعية (٧/٣٤١).

ولما ملك نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي دمشق في التاريخ المذكور في ترجمته لازم نجم الدين أيوب خدمته، وكذلك ولده صلاح الدين، وكانت مخايل السعادة عليه لائحة، والنجابة تقدمه من حالة إلى حالة، ونور الدين يرى له ويؤثره، ومنه تعلم صلاح الدين طرائق الخير وفعل المعروف والاجتهاد في أمور الجهاد، حتى تجهز للمسير مع عمه شيركوه إلى الديار المصرية[١]. وكان بعد ذلك سعده، وسعد المسلمين به.

١- وفيات الأعيان (١٤٥/٧)، و«قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر» (٣٤٣/٤). و«نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار» (٣٩٣/١).

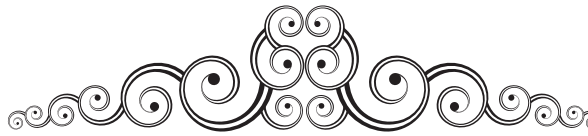

الثناء عليه

قال العماد الأصفهاني (ت ٥٩٧هـ): «وما زال ناصرًا للتوحيد، قامعًا جمع أهل البدع بالتبديد.

شافعي المذهب أصولًا وفروعًا، معتقدًا له معقولًا ومسموعًا، يديم استفادة فقه الفقيه، واستزادته بنباهة النَّبيه، ووجاهة الوجيه. فالعالَمون في عدله، والعَالِمون في فضله، والبلاد في أمنه، والعباد في منه، والبرية في برِّ سعيه، والإسلام في حماية حميته»[١].

وقال: «فالله عز وجل سلَّط السُّلطان وأقدره على ما أعجز عنه الملوك، وهداه من التوفيق لامتثال أمره وإقامة فرضِهِ النهج المسلوك، ونظم له في حُتُوف أعدائه والفتوح لأوليائه السُّلوك، وخصَّه بهذا اليوم الأغرَّ، والنَّصر الأبرَّ، واليُمن الأسَرَّ، والنُّجح الأدرَّ، ولو لم يكن له إلا فضيلة هذا اليوم[٢]، لكان متفردًا على الملوك السَّالفة، فكيف ملوك العصر في السموِّ والسَّوم، غير أنَّ هذه النوبة المباركة كانت للفتح القُدْسي مقدمة،

١- الكامل (١٠/١٢٠).
٢- يوم حطين.

ولمعاقد النَّصر وقواعده مُبرِمة مُحْكِمة»[١].

وقال ابن الأثير الجزري (ت ٦٣٠هـ): «كان نادرًا في عصره، كثير المحاسن والأفعال الجميلة، عظيم الجهاد في الكفار، وفتوحه تدلُّ على ذلك»[٢].

وقال الحافظ الذهبي عن موته (ت ٧٤٨هـ): «فوجد-حزن- النَّاسُ عليه شبيهًا بما يجدونه على الأنبياء، وما رأيت ملكًا حزن الناس لموته سواه؛ لأنَّه كان محببًا، يحبه البر والفاجر، والمسلم والكافر!»[٣].

وقال تاج الدين السبكي (ت ٧٧١هـ): « قد اعتبرت فوجدت أربعة لا خامس لهم في العدل بعد عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه إلا أن يكون بعض أناس لم تطل لهم مدة، ولا ظهرت عنهم آثار ممتدة، وهم سلطانان، وملك، ووزيره في العجم وهما هذا السلطان -محمود بن سبكتكين- والوزير نظام الملك، وبينهما في الزمان مدة، وسلطان وملك في بلادنا، وهما السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب فاتح بيت المقدس، وقبله الملك نور الدين محمود بن زنكي الشهيد، ولا أستطيع أن أسميه سلطانًا؛ لأنَّه لم يسمَّ بذلك»[٤].

وقال الحافظ ابن كثير (ت ٧٧٤هـ): «كان ردءًا للإسلام، وحرزًا وكهفًا

١- الروضتين (٣/٢٨٤-٢٨٥).
٢- الْفَتْح القسي فِي الْفَتْح الْقُدسِي (ص٣٤٤).
٣- سير أعلام النبلاء (٢١/٢٨٣).
٤- شذرات الذهب (٦/٣١١).

من كيد الكفرة اللئام»[١].

وقال السيوطي (ت ٩١١هـ) عن المدرسة الصلاحية: «بانيها أعظم الملوك، ليس في الإسلام مثله، لا قبله ولا بعده، بناها السلطان صلاح الدين بن أيوب»[٢].

وفضائله كثيرة، والمثنون عليه كثر، وهذا فيض من غيض، وسلالة من زلالة[٣] فيمن كتب عنه أو ترجم له، ممن شهد أو نقل عمن شهده.

١- البداية والنهاية (٦٥٢/١٦).
٢- حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة (٢٣٧/٢).
٣- السلالة: الخلاصة، والزلال: الصافي من الشيء.

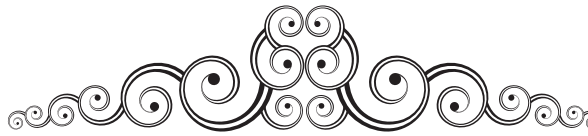

طلبه للعلم وعنايته بالعلم وأهله

سيرة السلطان المظفر سيرة العالم العابد، والمجاهد القائد، سمع الحديث النبوي: من الشيخ قطب الدين النيسابوري، وعبد الله بن بري النحوي، وابن عساكر، وجماعة.

وحَفِظَ كتاب الله[١]. وكان محبًا لسماع القرآن العظيم، ويستجيد إمامه ويشترط أن يكون عالماً بعلم القرآن العظيم متقناً لحفظه، وكان يستقرئ من يحرسه في الليل وهو في برجه الجزئيين والثلاثة والأربعة وهو يسمع[٢].

واجتاز يومًا على صبي صغير بين يدي أبيه وهو يقرأ القرآن فاستحسن قراءته، فوقف عليه وعلى أبيه مزرعة[٣]. وكان رقيق الدَّمعة، إذا سمع القرآن العزيز يخشع قلبُه، وتدمع عينهُ في مُعْظم أوقاته[٤]. **فقيهًا يحفظ «التنبيه» في الفقه**[٥].

١- من ضيع القرآن للدكتور شوقي أبو خليل (ص١٠٧-١٥٣)، و«قادة الأمة في رحاب القرآن» (ص٤٦).

٢- النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (ص٣٦).

٣- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (٩/٦).

٤- الروضتين (٣٨٤/٤).

٥- طبقات الشافعية للسبكي (٣٤٠/٧) وهو (كتابٌ في الفقه الشافعي).

ويحفظ ديوان (الحماسة)، ويظنُّ أنَّ كل فقيهٍ يحفظها، فإذا أنشد وتوقف، استطعم فلا يطعم، وجرى له ذلك مع القاضي الفاضل، ولم يكن يحفظها، وخرج فما زال حتى حفِظها[١].

ويحفظ أنساب العرب ووقائعهم، عارفاً بسيرهم وأحوالهم، حافظاً لأنساب خيلهم، عالماً بعجائب الدنيا ونوادرها؛ بحيث كان يستفيد محاضره منه ما لا يسمع من غيره[٢]. ويفهم ما يقال بين يديه من البحث والمناظرة، ويشارك في ذلك[٣]. وكان لمداومة الكلام مع الفقهاء؛ ومشاركة القضاة، أعلم منهم بالأحكام الشرعية، والأسباب المرضية، والأدلة المرعية[٤].

ودولةُ السِّيفِ لا تقْوَى دعامَتُها ... مَا لم تكُنْ حَالَفتْهَا دولةُ الكُتبِ

وكان يعرف لأهل الفضل والعلم مكانتهم، فيقول في ملأ من النَّاس: «لا تظنُوا أنِّي ملكتُ البلادَ بسيوفكم؛ بل بقلم الفاضل»[٥]. والفاضل هو القاضي عبد الرحيم البيساني رحمه الله[٦]. قال ابن شداد: «وكان يوصينا

١- سير أعلام النبلاء (٢١/٢٨٢).
٢- المحاسن اليوسفية (ص٧٠).
٣- البداية والنهاية (١٦/٦٥٦).
٤- الفتح القسي (ص٣٤٢).
٥- مرآة الزمان في تواريخ الأعيان لسبط ابن الجوزي (٢٣/٨٣).
٦- ومن حسناته بناء دار الحديث الفاضلية، وممَّن درس بها (عبد الرحمن بن أبي الفهم اليلداني، كان شيخًا صالحًا مشتغلًا بالحديث وإسماعه، والذهبي، وأبو المعالي محمد بن رافع بن هجرس السلامي المصري الشافعي، وجماعة كثر) كما في «دور الحديث الشريف بدمشق» (ص٢٣)، وسوف يأتي الحديث عنها إن شاء الله.

بأنْ لا نغفل عمَّن يجتاز بالخيم من المشايخ المعروفين حتى يحضرهم عنده، وينالهم من إحسانه»[١]. ومن كان لا يأتي منهم أبواب السلاطين أخذ أولاده وذهب إليه كما ذهب إلى (الحافظ الأصفهاني) في الإسكندرية[٢].

وكان يحترم الشيخ أبو الفتح محمود بن أحمد بن علي المحمودي البغدادي، ويرعاه[٣]. **وحضر جنازة الحافظ ابن عساكر الدمشقي**[٤]. **ويوقر الشيخ أبو يحيى اليسع بن عيسى بن حزم الغافقي المقرئ، واستملى عليه**[٥]. **وقرَّب الفقيه الشافعي نجم الدين الخُبُوشانيُّ وأكرمه**، وكان يعتقد في علمه ودينه، ويقال: إنَّه أشار على السلطان بعمارة المدرسة المجاورة لضريح الإمام الشافعي رضي الله عنه، فلمَّا عمرها فوض تدريسها إليه[٦]. وجعل له من المعلوم في كل شهر أربعين دينار معالمة، صرف كل دينار ثلاثة عشر درهما وثلث درهم عن التدريس، وجعل عن معلوم النظر في أوقاف المدرسة عشرة دنانير، ورتب له من الخبز في كل يوم ستين رطلًا بالمصري، وراويتين من ماء النيل[٧].

١- المحاسن اليوسفية لابن شداد (ص٦٧).
٢- رجال من التاريخ (ص٢١٩).
٣- السير (٢١/١٦٣-١٦٤).
٤- وفيات الأعيان (٣/٣١١)، و«شذرات الذهب» (١/٤٤).
٥- شذرات الذهب (٦/٤١٣)، و«التكملة لكتاب الصلة» (٤/٢٣٧).
٦- وفيات الأعيان (٤/٢٤٠)، و«البداية والنهاية» (١٦/٦٣٨).
٧- حسن المحاضرة (٢/٢٣٧).

وهو أول من بنى الخوانق من الملوك بمصر، ورتب للفقراء الواردين أرزاقاً معلومة[١].

واستناب سنة (٥٦٦هـ) في سائر المعاملات قضاة شافعية، وبنى مدرسة للشافعية وأخرى للمالكية[٢].

ومن أجلِّ الصور في توقير السلطان المظفر للعلماء والصالحين ما قاله ابن شداد: ولقد مرَّ بنا سنة أربع وثمانين رجل جَمَعَ بين العلم والتصوف، وكان من ذوي الأقدار، وكان أبوه صاحب توزير[٣]. فأعرض هو عن فنِّ أبيه، واشتغل بالعلم والعمل، وحجَّ ووصل زائرًا لبيت الله المقدَّس، ولما قضى لُبانته منه، ورأى آثار السُّلطان فيه وقع له زيارته، فوصل إلينا إلى العسكر فلقيتُهُ ورحَّبْتُ به، وعرَّفتُ السلطان وصوله، فاستحضره وشكره عن الإسلام، وحثَّه على الخير وانصرف، وباتَ عندي في الخيمة.

فلمَّا صلَّينا الصُّبح أخذ يودِّعني، فقبَّحتُ له المسير دون وداع السُّلطان، فلم يلتفت، ولم يلوِ على ذلك، وقال: قضيتُ حاجتي منه، ولا غَرضَ لي فيما عدا رؤيته وزيارته، ثمَّ انصرفَ من ساعتهِ، ومضى على ذلك ليالٍ،

١- والخانقاه كلمة فارسية قيل: أصلها خونكاه أي الموضع الذي يأكل فيه الملك. وهي زوايا الصوفية لم تعهد على هذا النمط إلا في القرن السادس (خطط الشام) (٦/١٣٠).

٢- البداية والنهاية (١٦/٤٤٨)، وانظر: تفصيل ذلك في «الروضتين» (٢/١٨٠-١٨١).

٣- بلدة كانت في عراق العجم، ثم أشار إليها ابن خلدون في مقدمته (٣/١٠٣٣)، وقال محققه: ولم أجدها في غيره من المصادر التي بين يدي.

فسأل السُّلطانُ عنه، فأخبرته بفعله، فظهر عليه آثار التَّعتُّب، كيف لم أخبره برواحه، وقال: كيف يطرقنا مثل هذا الرجل، وينصرف عنَّا من غيرِ إحسانٍ يمسُّه مِنَّا؟ وشدَّد النَّكير عليَّ في ذلك، فما وجدتُ بُدًّا من أن أكتب كتابًا إلى محيي الدين قاضي دمشق كلَّفته فيه السؤال عن حال الرَّجل، وإيصال رقعة كتبتُها إليه طيَّ كتابي، أخبرته فيها بإنكار السُّلطان رواحه من غيرِ اجتماعٍ به، وحسَّنْتُ له فيها العود، وكان بيني وبينه صداقةٌ تقتضي مثل ذلك، فعاد واجتمع بالسُّلطان، فرحَّب به، وانبسط معه، وأمسكه أيامًا ثمَّ خلعَ عليه خِلْعةً حسنةً، وأعطاه مركوبًا لائقًا، وثيابًا كثيرة ليحملها إلى أهل بيته وأتباعه وجيرانه، ونفقةً يرتفق بها، وانصرف عنه وهو أشكر النَّاسِ له، وأخلصهم دعاء لأيامه[1].

و**كان ينهى عن التعصب**، فمما كتب الفاضل عن السلطان إلى العادل وهو بمصر، انتهى إلينا أنَّ بالديارِ المصريَّة، وبالحضرة العليَّة: جماعةً من الفقهاء، قد اعتضدوا بجماعةٍ من أرباب السيوف، وبسطوا ألسنتهم بالقول غير المعروف، وأنشؤوا من العصبية ما أطاعوا به القوى الغضبية، وأحيوا بها ما أماته الله من أهل حميَّة الجاهلية، والله سبحانه يقول، وكفى بقوله حُجَّةً على من كان سميعًا مطيعًا ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ

١- النوادر السلطانية (ص ٦٨)، وعنه في «الروضتين» (٤/٤٠٢-٤٠٣).

جَمِيعًا ﴾

ولم يزل التعصُّب للمذاهب يملأ القلوب بالشَّحناء، ويشحنها، وقد نهى الله عن المجادلة لأهل الخلاف فكيف لأهل الوفاق إلا أن يقال أحسنُها، وما علمنا أَنَّ في ذلك نيَّةً تُنْجد، ولا مصلحةً توجد، ولا هدايةً تُعتقد، بدراسة تعقد، ونار عداوةٍ توقد، وقلَّما أثمرت المشاجرة إلا خلافًا، فالمجلس -أعزَّه الله- يوعز بكفِّ الألسنة الخائضة، وعقل الأعِنَّة الرَّاكضة، فإنْ أقنع بلُطْفِهِ المرضَى وإلا كانت همَّتُه الرائضة، ومن عاد بعد الزَّجر أُبْعد عن مُستقرِّه، وأُزعج، وليسع الخلف ما وسع السَّلف من الأدب، وليعلم العبدُ أنَّه يكتب كتابًا إلى ربِّه فليفكر فيما كتب وإلى مَنْ كتب[١].

وأما سماعه للحديث النبوي، فالأخبار عنه جليلة وعظيمة في ذلك، وكان ﷺ يؤثر سماع الحديث بالأسانيد[٢]،شديد الرغبة في سماع الحديث[٣]. وإذا بلغه عن شيخٍ رواية عالية، وكان ممَّن يحضر عنده استحضره، وسمع عليه، وأسمع أولاده ومماليكه، ويأمرهم بالقعود عند سماع الحديث إجلالًا له، وإن لم يكن ممَّن يُحضر عنده[٤].

ومن أحواله في ذلك، ما قاله الحافظ الذهبي ﷺ عن الحافظ أبي طاهر

١- الروضتين (٢/٢٢٤).
٢- السير (٢١/٢٨٧).
٣- شذرات الذهب (٦/٤٨٩).
٤- مرآة الزمان في تواريخ الأعيان (٢٢/٢٠).

السِّلفي، بلغني أنَّ سلطان مصر حضر عنده ليسمع فشرع يتحدث مع أخيه فزبرهما، وقال: «أيش هذا؟ نقرأ الحديث وأنتما تتحدثان!»[١].

قال: وحضر عنده السلطان صلاح الدين وأخوه الملك العادل لسماع الحديث، فتحدثا، فأظهر لهما الكراهة، وقال: أنتما تتحدثان، وحديث النبي ﷺ يقرأ؟! فأصغيا عند ذلك.

قلت –الذهبي–: وقد حدَّث السلطان عنه[٢].

وقال جمال الدين أبو عبد الله المازني في «مفرج الكروب» ثمَّ رحل إلى ثغر الإسكندرية وتردد إلى الشيخ الحافظ أبي طاهر أحمد بن محمد السلفي رحمه الله في كل جمعة ثلاثة أيام: (الخميس، والجمعة، والسبت)، وإنَّما استصحب ولديه في هذه السفرة ليسمعهما الحديث النبوي وتعمهما البركة[٣].

وقال السيوطي: قال القاضي الفاضل في بعض «رسائله»: «ما أعلم أنَّ لملك رحلة قطُّ في طلب العلم إلا للرشيد، فإنَّه رحل بولديه الأمين والمأمون لسماع الموطأ على مالك رحمه الله قال: وكان أصل الموطأ بسماع الرشيد في خزانة المصريين، وقال: ثمَّ رحل لسماعه السلطان صلاح الدين

١- تذكرة الحفاظ (٦٦/٤)، و«الوافي بالوفيات» (ترجمة: السلفي) (٢٣١/٧).
٢- السير (٢٨/٢١).
٣- مفرج الكروب في أخبار بني أيوب (٥٦/٢).

بن أيوب إلى الإسكندرية، فسمعه على بن طاهر بن عوف[١]، ولا أعلم لهما ثالثًا»[٢].

وقال بهاء الدين ابن شداد: «وكان رحمه الله شديد الرغبة في سماع الحديث، ومتى سمع عن شيخ ذي رواية عالية وسماع كثير؛ فإن كان ممن يحضر عنده استحضره، وسمع عليه فأسمع من يحضره في ذلك المكان من أولاده ومماليكه المختصين به، وكان يأمر الناس بالجلوس عند سماع الحديث إجلالاً له»[٣].

وقال: «ولقد قرئ عليه جزآن من الحديث بين الصفين، وذلك أني قلت له: قد سمع الحديث في جميع المواطن الشريفة، ولم ينقل أنه سمع بين الصفين؛ فإن رأى المولى أن يؤثر عنه ذلك كان حسناً فأذن في ذلك فأحضر جزؤه كما أحضر من له به سماع فقرأ عليه، ونحن على ظهور الدواب بين الصفين نمشي تارة ونقف أخرى»[٤].

ورحل لسماع الموطأ من إسماعيل بن مكي بن إسماعيل بن عيسى بن عوف، الإسكندري، الفقيه المالكي[٥].

١- الوافي بالوفيات (١٣٦/٩).
٢- تاريخ الخلفاء للسيوطي (ص٢٩٦) ط: ابن حزم. و«حسن المحاضرة» (٤٨/٢) ط: التوفيقية.
٣- النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (ص٣٦).
٤- المصدر نفسه (ص٥١).
٥- تاريخ الإسلام (٧٢٤/١٢).

وقال ابن الأثير: «لم يلبس شيئًا ممَّا ينكره الشرع، وكان عنده علم ومعرفة، وسمع الحديث وأسمعه، وبالجملة كان نادرًا في عصره، كثير المحاسن والأفعال الجميلة، عظيم الجهاد في الكفار»[١].

قال أَبُو شامة: كان صلاح الدين يكاتبه -يعني الواعظ ابن نجا الدمشقي-، ويحضر مجلسه هو وأولاده: العزيز، وغيره. وكان له جاه عظيم، وحرمة زائدة[٢]. وجمع له القطب النيسابوري عقيدة فكان يحفظها، ويحفظها من عقل من أولاده[٣]. وكان يأخذها عليهم، وهم يقرؤونها من حفظهم بين يديه[٤].

١- الكامل في التاريخ (١٠/١١٩-١٢٠).
٢- ذيل طبقات الحنابلة (٢/٥٣١-٥٣٦).
٣- البداية والنهاية (١٦/٦٥٧)، و«السلوك لمعرفة دول الملوك» (١/١٤٩).
٤- الروضتين (٤/٣٨٢).

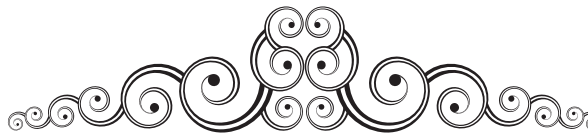

عناية الأيوبيين بسماع الحديث وبناء المدارس الشرعية

كان للأيوبيين عناية وحرصٌ على سماع الحديث وحب العلماء، وهم على مذهب الإمام الشافعي سوى السلطان عيسى بن العادل فإنَّه كان على مذهبِ الإمام أبي حنيفة النعمان، ومن عنايتهم بسماع الحديث، نذكر جملة من أعلامهم ليتبين الذي ذكرنا، **وفي مقدمتهم: السلطان المظفر صلاح الدين** -كما مرَّ ذكره-.

ومنهم: تاج الملوك مجد الدّين بوري (ت ٥٧٩هـ)، وهو أخو السلطان صلاح الدّين، وكان أديبًا شاعرًا، له ديوان صغير، وجمع الله فيه محاسن الأخلاق ومكارمها، مع الشجاعة والفصاحة[١].

ومنهم: تقي الدين عمر بن شاهنشاه (ت ٥٨٧هـ) وهو ابن أخي السلطان اشترى دارًا كانت تعرف بـ(منازل العز)[٢]، وجعلها مدرسة للشافعيَّة، ووقف عليها الروضة وغيرها[٣].

ومنهم: عذراء بنت أخي السلطان صلاح الدين (ت ٥٩٣ هـ)، بنت

١- شذرات الذهب (٤٣٦/٦).
٢- انظر منازل العز في «الخطط والآثار» للمقريزي (٤٣٣/٢).
٣- البداية والنهاية (٤٤٨/١٦)، و«الروضتين» (١٨٢/٢).

مدرسة تعرف بـ(العذراوية)، وهي بحارة الغرباء داخل باب النصر الذي كان يسمّى بباب دار السعادة. وهي للفريقين الشافعية والحنفية.

وممن درّس بها: الفخر ابن عساكر، وابن أبي عصرون، وابن الزكي، والشمس بن خلكان، وابن قاضي شهبة وغيرهم[١].

ومنهم: الملك الطاهر بن الملك النَّاصر صلاح الدين (ت ٦١٣هـ)

بنى المدرسة الظاهرية البرانيَّة خارج باب النصر. درَّس بها كثير من المشاهير منهم: إمام الدين وجلال الدين القزويني، وابن صصري، وابن جملة[٢].

وسمع الملك الظاهر من: أبي الطاهر بن عوف، وعبد الله بن بري النحوي، والفضل ابن البانياسي، وحدث.

قال سبط الجوزي: «كان مهيبًا سائسًا، فطنًا، دولته معمورة بالعلماء، مزينة بالملوك والأمراء، وكان محسنًا إلى الرعية، وشهد معظم غزوات والده، وكان يزور الصالحين، ويتفقدهم، وله ذكاء مفرط، مات بعلة الذرب»[٣].

١- الأعلام (٤/٢٢٢)، وانظر بعض تراجم نساء بني أيوب في كتاب (الروضة الفيحاء في أعلام النساء).

ومن هذه المراكز العلمية الأيوبية: خانقاه النجمية في بعلبك، عمره نجم الدين أيوب والد السلطان صلاح الدين يوسف أيام ولايته عليها وخصه بالصوفية، والمدرسة الأسدية لأسد الدين شيركوه، ومنها: الحدادية لمحمد بن عمر بن لاجين ابن أخت صلاح الدين، ومنها: الأفضلية وتعرف بالقبة بحارة المغاربة، وقف الملك الأفضل نور الدين أبي الحسن علي بن الملك صلاح الدين على فقهاء المالكية بالقدس.

٢- خطط الشام (٦/٨١).

٣- السير (٢١/٢٩٧-٢٩٨).

ومنهم: الملك العادل سيف الدين أبو بكر محمد أخو القائد صلاح الدين الأيوبي (ت ٦١٥هـ). ذكر ابن عبد الهادي عن الحافظ عبد الغني المقدسي أنَّه قال: ما رأيتُ منه إلا الجميل، أقبل عليَّ وقام لي، والتزمني، ودَعَوْتُ له، وقلتُ: عندنا قصور يوجب التقصير.

فقال: ما عندك تقصير ولا قصور. وذكر أمر السُّنَّة فقال: ما عندك شيء يُعاب في أمر الدِّين ولا الدُّنيا، ولا بدَّ للنَّاسِ من حاسدين.

قال ابن عبد الهادي: وبلغني عنه بعد ذلك أنه ذُكر عنده العلماء فقال: ما رأيتُ مثل فلان، دخل عليَّ فَخُيِّلَ إليَّ أنَّه أسدٌ قد دخل عليَّ[١]. وكان «محافظًا على الصلوات، متبعًا لأرباب السنَّة، مائلًا للعلماء»[٢]. وصنَّف له فخر الدين كتاب «تأسيس التقديس» وجهزه إليه من خراسان. قيل: أنَّه سير إليه ألف دينار[٣].

وَوُصِف كما في كتاب «المختصر في أخبار البشر» «[أنه] كان محباً للعلماء ومجالستهم، وكانت عنده مسائل غريبة في الفقه والنحو يمتحن بها الفضلاء، إذا حضروا في خدمته، وكان كثير السماع للأحاديث النبوية، تقدم عنده بسببها الشيخ عمر بن دحية، وبنى له دار الحديث

١- طبقات علماء الحديث (١٥٣/٤).
٢- نزهة الناظرين في تاريخ مصر لمرعي الكرمي (٦٨/٨).
٣- الوافي بالوفيات (١٦٩/٢).

بين القصرين، في الجانب الغربي، وكانت سوق الآداب والعلوم عنده نافقة ﷺ تعالى»[١].

ومنهم: الملك الأفضل ابن صلاح الدين أبو الحسن علي، الملقب الملك الأفضل نور الدين، ابن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب (ت ٦٢٢هـ). سمع بالإسكندرية من الإمام أبي الطاهر إسماعيل بن مكي بن عوف الزهري، وبمصر من العلامة أبي محمد عبد الله بن بري النحوي، وأجاز له أبو الحسين أحمد بن حمزة بن علي السلمي، وأبو عبد الله محمد بن علي بن صدقة الحراني، وغيرهما من الشاميين، وأجاز له أبو القاسم هبة الله بن علي بن مسعود وأبو عبد الله بن أحمد بن حامد وغيرهما من المصريين. وكان يكتب خطاً حسناً، واجتمعت فيه فضائل[٢].

ومنهم: أحمد بن يوسف بن أيوب بن شاذي، كان يلقب بالملك المحسن ابن السلطان الكبير صلاح الدين، نشأ نشوءًا صالحًا، وحفظ القرآن، وقرأ الأدب، وطلب الحديث، وأحضر الشيوخ من البلدان، وسمع الكثير بعد الستمائة، وكتب بخطه واستنسخ، وحصل الكتب الكثيرة والأصول[٣].

١- (١٦١/٣).
٢- وفيات الأعيان (٤١٩/٣).
٣- الوافي بالوفيات (١٨٤/٨).

ومنهم: موسى ابن الملك العادل الأيوبي (ت٦٣٥هـ): بنى دار الحديث الأشرفية الجوانية، وخرَّب الحمام الذي بجوارها، وبناها سكنًا لشيخها المدرس، وأتمَّ بناءها في سنتين.

وموسى ابن الملك العادل الأيوبي سمع صحيح البخاري في ثمانية أيام من ابن الزبيدي، تملك القدس أولًا، ثمَّ أعطاه أبوه حران والرُّها وغير ذلك، ثم تملك دمشق فعدل وأحبته الرعية، وله فهم وذكاء، عمَّر جامع التوبة، وجامع الجراح، ومسجد أبي الدرداء، وداري الحديث الجوانية والبرانية وغيرها.

وأوَّل من درَّس فيها: الحافظ أبو عمرو بن الصلاح، وثمَّ أبو شامة المقدسي، والشيخ يحيى بن شرف النووي الدمشقي، والمزي الدمشقي، وتقي الدين السبكي، وتاج الدين السبكي، وسراج الدين البلقيني، وابن كثير الدمشقي، وعمر بن عثمان المعري الحلبي، وابن حجر العسقلاني، وجماعة كثر رحمهم الله.

وفي هذه الدار يقول تقي الدين السبكي:

وفي دَارِ الحَديثِ لَطيفُ مَعنىً ... على بُسُطٍ لها أَصْبُو وَآوِي

عَسَى أَنِّي أَمُسُّ بحرِّ وَجْهِي ... مَكَانًا مَسّهُ قَدَمُ النَوَوي

وبنى دار الحديث الأشرفية البرانية: واقفها موسى ابن الملك العادل

الأيوبي، وقد بناها للحافظ جمال الدين عبد الله ابن الحافظ عبد الغني المقدسي (ت٦٢٩هـ).

وجعل الملك الأشرف هذه الدار للحديث، وخاصة بالحنابلة، كما جعل دار الحديث الأشرفية الجوانية للشافعية، وقرر الأشرف للحافظ معلومًا فمات قبل فراغها[١].

ومنهم: محمد ابن السلطان الملك الكامل ابن السلطان الملك العادل بن أبي بكر بن أيوب بن شاذي أبو المظفر وأبو المعالي (ت ٦٣٥هـ). وكان شهمًا، عاقلًا لبيبا، محبًا للعلماء، بنى دار الحديث الكاملية بمصر، ضيق على الفرنج وأذلهم برا وبحرًا، وأقام بدمياط مرابطًا نحوًا من ثلاث سنين[٢].

ومنهم: السلطان الملك المعظم عيسى بن العادل (ت ٦٥٦هـ). كان عالماً فاضلًا متفننا في الفقه والنحو وغيرهما، وشيخه في النحو وعلم الأدب الشيخ تاج الدين أبو اليمن زيد بن الحسن الكندي، وكان شيخه في الفقه الإمام جمال الدين الحصيري.

وكان ملوك -بني أيوب- كلهم شافعية، وانفرد هو بالانتماء إلى مذهب

١- دور الحديث الشريف بدمشق (ص٥٧ وص٦٧).

٢- طبقات الشافعيين لابن كثير (ص٨٣٨).

أبي حنيفة[١].

وقيل: أنَّ أباه السلطان الملك العادل لامه في ذلك، وقال له: «كيف اخترت مذهب أبي حنيفة، وأهلك كلهم شافعية؟».

فقال لأبيه على سبيل المداعبة: «يا خوند أما ترضون أن يكون فيكم رجل واحد مسلم!».

ولما وقف الملك المعظم على (تاريخ بغداد) الذي صنَّفه الشيخ الحافظ

١- ذكره تقي الدين الغزي (ت ١٠١٠هـ) في «الطبقات السنية في تراجم الحنفية» (ص٢٧٥) بأنه: «فقيه، أديب، واسع النفس، مُحباً للعُلماء، مُقرباً لهم، مُحسناً إلى من يقدم عليه منهم، كثير العطاء لهم».

وروي أنَّه كان يقول: أشتهي أن يرزقني الله الشهادة. فطعن في جنبه الأيسر، فأصبح وهو يشكو ألماً مثل الطعن بالسيف، ودام على ذلك إلى آخر النهار، فلمَّا أمسى نام، ثمَّ انتبه، وقال: إنِّي رأيت جنبي الأيسر يقول لجنبي الأيمن: أنا قد جاءت نوبتي فصبرت، والليلة نوبتك فاصبر كما صبرت. فأصبح وقد طُعن في جنبه الأيمن.

فلمَّا كان بين الصلاتين، وقد سقطت قواه، نام ثمَّ انتبه وهو يرعد، فقال: إنِّي رأيت النبي ﷺ، والخضر عليه الصلاة والسلام، قد جاءا إليَّ، وجلسا عندي، ثمَّ انصرفا.

فلمَّا كان آخر النهار قال لولده الأكبر شهاب الدين غازي: يا بُني ما بقي في رجاء، فتهيأ في تجهيزي.

فبكى، وبكى الحاضرون، فقال له: لا تكن إلا رجلاً، ولا تعمل عمل النساء، ولا تغير هيئتك. وأوصاه بأهله وأولاده.

ثمَّ اشتد به الضعف، وغاب صوابه، ثم أفاق فقال: بالله تقدموا إلى جانبي، فإني أجد وحشة.

ثمَّ قال: أرى صفاً عن يميني، فيهم أبو بكر وسعد، وصورهم جميلة، وعليهم ثياب بيض، وصفا عن شمالي، وصورهم قبيحة، أبدان بلا رؤوس، ورؤوس بلا أبدان، وهؤلاء يطلبونني، (وهؤلاء لا يطلبونني). وأنا أريد أروح إلى أهل اليمين.

ثمَّ أغفى إغفاءة، ثم استيقظ، وقال: الحمد لله، خلصت، خلصت منهم. ثم مات، رحمه الله تعالى.

أبو بكر أحمد بن ثابت، وفيه مطاعن على أبي حنيفة، رواها الخطيب عن جماعة من المحدثين[١]، ردَّ عليه الملك المعظم في ذلك، وصنَّف كتاباً سمَّاه «السهم المصيب في الرد على الخطيب». وأجاب الملك المعظم في هذا الكتاب عن كل مطعن ذكره بأحسن جواب، وذكر فيه مباحث جليله دقيقه في الفقه والنحو، ووقفت على هذا الكتاب بالقدس الشريف، وطالعته جميعه ووجدته في غاية الحسن[٢].

ومنهم: أرسلان بن داود بن يوسف الملك المعظم ركن الدين ابن الزاهر ابن السلطان صلاح الدين (ت ٦٧٨هـ).

حدث بإجازة عامة من الصيدلاني، وأجاز للبرزالي وجماعة، وحدث بدمشق والقاهرة، وسمع منه المزي بقراءة ابن جعوان[٣].

ومنهم: شاذي بن داود بن عيسى بن أيوب بن شاذي (ت ٦٨١هـ) سمع من: ابن المنجا، وابن اللتي. وحدث بدمشق، وكان دينًا خيرًا متواضعًا[٤].

ومنهم: عصمة الدين خاتون بنت الأمير معين الدين أنر(ت ٥٨١هـ)

١- وهذا شيء معروف وتركه أولى من الخوض فيه، وانظر كلام الشيخ المعلمي اليماني رحمه الله في كتابه (التنكيل بما في تأنيب الكوثري من الأباطيل) فإنَّه يجلي لك الحقيقة بعين الإنصاف.

٢- مفرج الكروب في أخبار بني أيوب (٤/٢١٠-٢١٢).

٣- الوافي بالوفيات (٨/٢٢٣).

٤- الوافي بالوفيات (١٦/٤١).

زوجة السلطان نور الدين، ثمَّ زوجة السلطان صلاح الدين.

تزوَّج بها صلاح الدين في سنة اثنتين وسبعين، وكانت من أعف النِّساء وأجلهن، وأوفرهنَّ حشمة. وهي واقفة المدرسة الخاتونية بمحلة حجر الذهب بدمشق للحنفية، وبنت خانقاه للصوفية على الشرف القبلي خارج باب النصر، وبنت تربة بقاسيون على نهر يزيد تجاه قبة جركس ودفنت بها[١].

١- تاريخ الإسلام (٧٣٦/١٢)، و«شذرات الذهب» (٣١٩/٤).

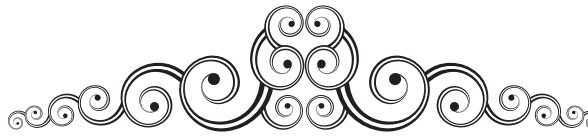

زهده وتواضعه وعبادته

كان متزهدًا في مأكلهِ ومشربِه ومركبهِ وملبسهِ، فلا يلبسُ إلا القطن والكتان والصوف. عابدًا قانتًا لله، لا تأخذهُ لومةَ لائمٍ، يجمع في مجلسه الفضلاء والفقراء، وأصحابُه كأنمَّا هُم على قلبِ رجلٍ واحدٍ محبةً فيه واعتقادًا وطواعية[١]. مَنْ جالسه لا يعلم أنَّه جليس سلطان[٢]؛ بل يعتقد إنَّه جليس أخ من الأخوان، وكان حليمًا مقيلًا للعثرات، متجاوزًا عن الهفوات، نقيًا تقيًا، وفيًا صفيًا. يغضي ولا يغضب، ويبشر ولا يتقطب ما ردَّ سائلًا، ولا صدَّ نائلًا، ولا أخجل قائلًا، ولا خيب آملًا[٣]. وكانت طراحتُه تُداسُ عند التزاحم عليه لعرض القصص، وهو لا يتأثر لذلك[٤]. ومجالسه مُنَزهة عن الهُزْء والهَزْل، ومحافِلُهُ حافلة بأهل العِلْم والفَضْل، وما سُمِعَتْ منه قطُّ كلمةٌ تسقط، ولا لفظة تُسْخط[٥]. ويجودُ بالمال قبل الوصول إليه ويحيل به، ومتى عَرَفَ وصول حِمْل وقَّع عليه

١- طبقات الشافعية (٣٤٠/٧) بتصرف يسير.
٢- شذرات الذهب (٤٨٩/٦).
٣- الفتح القسي (ص٣٤٢).
٤- الروضتين (٤٠٠/٤).
٥- مرآة الزمان (١٩/٢٢).

بأضعافه، وما خيَّب أحدًا بالرد، وإن لم يكن عنده شيءٌ لطف به كأنَّه غريم يستمهله[١]. ولم يخلف أموالاً ولا أملاكًا؛ لكثرة عطاياه وهباته وصدقاته وإحسانه إلى أمرائه ووزرائه وأوليائه، حتَّى إلى أعدائه، ولا يعرف أنَّه تخطى مكروهًا بعد أن أنعم الله عليه بالملك[٢]. وكان حسن الخلق، يسأل الواحد عن مرضه ومداواته ومطعمه ومشربه وتقلبات أحواله، ولا يرى شيخاً إلا ويرِّق له ويعطيه ويحسن إليه، ولم يزل على هذه الأخلاقِ إلى أنْ توفاه الله إلى مقر رحمته، وما حضر بين يديه يتيم إلّا وترحّم على من خلّفه، وجبرَ قلبه وأعطاه ما يكفيه؛ فإنْ كان له كافلٌ سلّمه إليه وإلّا كفله[٣].

وكان ﵀ كريمًا، حليمًا، حسنَ الأخلاق، متواضعًا، صبورًا على ما يكره، كثير التغافل عن ذنوب أصحابه، يسمع من أحدهم ما يكره ولا يعلمه بذلك ولا يتغير عليه.

قال ابن الأثير: بلغني أنَّه كان يومًا جالسًا وعنده جماعة، فرمى بعض المماليك بعضًا بسرموز-حذائه- فأخطأته، ووصلت إلى صلاح الدين فأخطأته، ووقعت بالقرب منه، فالتفت إلى الجهةِ الأخرى يكلِّمُ جليسه

١- المصدر السابق (١٨/٢٢).
٢- البداية والنهاية (٦٥٦/١٦).
٣- المحاسن اليوسفية (ص٧٠).

ليتغافلَ عنها.

وطلبَ مرةً الماء فلم يحضر، وعاود الطلب في مجلسٍ واحد خمس مرات فلم يحضر، فقال: يا أصحابنا، والله قد قتلني العطش! فأُحضِر الماء فشربه، ولم ينكر التواني في إحضاره[١].

وكان الحُجَّاب يزدحمون على طَرَّاحته، فجاء سُنْقُر الخِلاطي ومعه قصص، فقدَّم إليه قصة، وكان السُّلْطان قد مدَّ يده اليمنى على الأرض ليستريح، فداسها سُنْقُر الخِلاطي ولم يعلم، وقال له: عَلِّمْ عليها. فلم يجبه، فكرَّر عليه القول، فقال: يا طواشي أُعلِّم بيدي أو برِجْلي. فنظر سُنْقُر، فرأى يد السُّلْطان تحت رِجْله، فخجل، وتعجَّب الحاضرون من هذا الحِلْم[٢].

وقال العماد: أطلق في مدَّة حصار عكا اثني عشر ألف فرس، قال: وما حضرَ اللقاء إلا استعار فرسًا، ولا يلبسُ إلا ما يحلُّ لبسُهُ، نزَّه المجالسَ من الهزل، ومحافلُهُ آهلةٌ بالفضلاء، ما رد سائلًا، ولا خجَّل قائلًا، كثيرُ البر والصدقات.

أنكر عليَّ تحلية دواتي بفضة، فقلت: في جوازِهِ وجه ذكره أبو محمد الجويني، وما رأيته صلَّى إلَّا في جماعة[٣]. وكتب إلى نوابهِ في الولايات،

١- الكامل (١١٠/١١٩).
٢- مرآة الزمان (٢٢/٢٢).
٣- السير (٢١/٢٨٧).

بإخراج الصدقاتِ، وقال لي[١]: أكتب إلى الصفي بدمشق أن يتصدق بخمسة آلاف دينار صورية. فقلت له: الذهب الذي عنده مصري. قال: فيتصدق بخمسة آلاف مصرية، وأشفق من صرف المصري بالصوري فيكون حرامًا، ويرتكب في كسب الأجر آثامًا. فسمح ومنح، وتاجر مع الله وربح[٢].

وكان محافظًا على الصَّلوات في أوقاتها، مواظبًا على مفروضاتها ومسنوناتها، لا يؤخرُ صلاةً من ساعة إلى ساعة، ولا يلتفتُ إلى قول منجِّم، وإذا عَزَم على أمرٍ توكَّل على الله الَّذي يؤخر ويقدِّم[٣].

ويقال: إنَّه لم تفته الجماعة في صلاةٍ قبل وفاته بدهرٍ طويل حتى ولا في مرض موته، كان يدخل الإمام فيصلي به فكان يتجشم القيام مع ضعفه، رحمه الله[٤].

وكان يصوم حتى في أيام المعارك، ولم يترك صلاة الليل إلا نادرًا، يلجأ إلى الله كلما دهمته الشدائد، وضاقت عليه المسالك، فيجد الفرج والنجاة[٥].

وأمَّا الزكاة فإنَّه مات رضي الله عنه ولم يحفظ ما وجبت عليه به الزكاة. وأمَّا صدقة

١- للعماد الأصفهاني.
٢- الفتح القسي (ص٣٤٣).
٣- مرآة الزمان (١٩/٢٢).
٤- البداية والنهاية (٦٥٦/١٦).
٥- رجال من التاريخ (ص٢١٩).

النَّفل فإنَّها استنفذت جميع ما ملكه من الأموال.

وأمَّا صوم رمضانَ فإنَّه كان عليه فيه فوائت بسبب أمراض تواترت عليه في رمضانات متعدِّدة.

وأمَّا الحج فإنَّه لم يزل عازمًا عليه وناويًا له، لا سيَّما في العام الذي توفِّي فيه، فإنَّه صمَّم العزم عليه، وأمر بالتأهُّبِ، وعُملت الزَّوَّادة، ولم يبقَ إلا المسير، فاعتاق عن ذلك بسبب ضيق الوقت، وفراغ اليد عمَّا يليق بأمثاله، فأخره إلى العام المستقبل فقضى الله ما قضى[١].

وكان يعطي في وقت الضائقة كما يعطي في حال السَّعة، وكان نوَّاب خزانتهِ يخفون عنه شيئًا من المالِ خوفًا أن يفجأهم مُهِمٌّ، لعلمهم أنَّه متى عَلِم به أخرجه.

قال ابن شداد: وسمعته يومًا يقول: «يمكن أن يكون في الناس من ينظر إلى المال كما ينظر إلى التراب». فكأنَّه أراد بذلك نفسه[٢].

وقال أبو عبد الله المازني في أحداث سنة (٥٨٦هـ) في ذكر (ذكر رحيل السلطان ﵀ إلى القدس ومقامه به): «وفي ذلك اليوم وصل خمسون رجلًا من الموصل برسم قطع الصخور من الخندق، وشرع السلطان في تحصين القدس وعمارة أسواره، وحفر خنادقه، وأرسل إلى البلاد في جمع

١- الروضتين (٤/٣٨٣-٣٨٤).
٢- النوادر السلطانية (ص٤٨).

رجال يقومون بهذه الأعمال، وعمل السلطان فيه بنفسه، بنقل الحجارة هو وأولاده وأجناده وأمراؤه، ومعهم القضاة والعلماء والفقهاء[١].

١- مفرج الكروب (٢/٣٧٤).

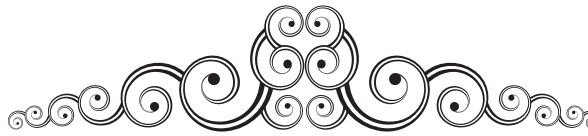

جهاده في سبيل الله

ملك البلاد، ودانت له العباد، وأحبه الخلق، ونصر الإسلام، وغزا الفرنج وكسرهم مرات، وفتح المدن الكبار، وأقام في السلطنة أربعًا وعشرين سنةً يجاهدُ في سبيل الله بنفسه وماله[١]. وكان رجل سياسة وحرب، بعيد النَّظر، متواضعًا مع جندِه وأمراء جيشه، لا يستطيع المتقرب مِنْه إلا أن يحسَّ بحبٍ له ممزوج بهيبة. ولم يكن في الملوك السالفة أمضى منه عزمًا، وأجدى فضلًا، وأعمَّ جدوى، وأكمل جهدًا في الجهاد، وأملك جلَدًا على الجِلاد، فإنَّه باشر بنفسه الحرب، ومارس الصَّعب، وقذف بالحق حين حققه على الباطل فأزهقهُ، ولا حدَّ ولا عدَّ لما في سبيل الله من نفائس النُّفوس والأموال أنفقه[٢]. شجاعًا، سمحًا، جوادًا، مجاهدًا في سبيل الله، وأول ما فتح الدّيار المصرية، والحجاز، ومكّة، والمدينة، واليمن من زبيد إلى حضرموت، متصلًا بالهند، ومن الشام: دمشق، وبعلبك، وحمص، وبانياس، وحلب، وحماة. ومن الساحل: بلاد القدس، وغزة، وتل الصافية، وعسقلان، ويافا، وقيسارية، وحيفا، وعكا -وفيها

١- طبقات الشافعية (٣٤٠/٧).
٢- الروضتين (٤١٦/٣).

لغتان: المدّ، والنسبة إليها عكاوي، وعكه بالهاء-، وطبرية، والشّقيف، وصفد، وكوكب، والكرك، والشّوبك، وصيدا، وبيروت، وجبلة، واللّاذقية، والشّغر، وصهيون، وبلاطنس، ومن الشرق حرّان، والرّها، والرّقّة، ورأس عين[١]، وسنجار، ونصيبين، وسروج، وديار بكر، وميّافارقين، وآمد، وحصونها، وشهرزور.

ويقال: إنَّه فتح ستين حصنًا، وزاد على نور الدّين بمصر، والمغرب، والحجاز، واليمن، والقدس، والساحل، وبلاد الفرنج، وديار بكر، ولو عاش لفتح الدّنيا شرقا وغربًا، وبعدا وقربا، ولم يبلغ ستين سنة، وكذا نور الدّين[٢]. أعز الله به الإسلام، وأذل به أهل الشرك والصليب[٣].

يقول أبو شامة: «ولو علم نور الدين ماذا ذخر الله تعالى للإسلام من الفتوح الجليلة على يدي صلاح الدِّين من بعده لقرت عينُه، فإنَّه بنى

١- مدينةٌ في مستوٍ من الأرض، لها سور يشتمل على طواحين ومزارع وبساتين. وبها أكثر من ثلاثمائة عين جارية صافية، منها ما لا يعرف له قرار، وقد وُضع عليها شباك من حديد. تجتمع هذه المياه فتصير نهرًا واحدًا، ويجري على وجه الأرض ويعرف بنهر الخابور. كما في «الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة» لابن شداد (ص١٣٧).
وقال ابن جبير في «رحلته» (ص٩١). «فجر أرضها عيوناً وأجراها ماء معيناً، فتقسمت مذانب وانسابت جداول تنبسط في مروج خضر، فكأنَّها سبائك اللجين ممدودة في بساط الزبرجد، تحف بها أشجار وبساتين قد انتظمت حافتيها آخر انتهائها من عمارة بطحائها... إلخ».
٢- شذرات الذهب (٦/٤٩٠)، وقارنه بـ«السير» (٢١/٢٨٦).
٣- قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر (٤/٣٤٣).

على ما أسَّسه نور الدِّين من جهاد المشركين، وقام بذلك على أكمل الوجوه وأتمها، رحمهما الله تعالى»[١].

هذا هو الفتحُ لا شيء سمعتَ بهِ ... في شَاهدِ الْعينِ لا مَا فِي الأسَانِيدِ

وكانت الحركة العلميَّة في تقويم الجهاد على قدم وساق، فقد ألَّف القاضي ابن شداد كتابًا في الجهاد وفضائله وما يتعلق به للسلطان صلاح الدين الأيوبي رحمه الله.

وصنَّف أيضًا الشيخ مجد الدين طاهر بن نصر الله بن جهبل الحلبي (ت٥٩١هـ) كتابًا في فضائل الجهاد لصلاح الدين[٢].

إنَّ الأكاسرة الأولى شادوا العلى ... بَين الْأَنَام فمفضل أَو منعم

يَشكونَ أنّك قد نسخت فعالهم ... حَتَّى تنوسي مَا تقدّم مِنْهُم

وسننت فِي شرع الممالك ما عموا ... عَن بعضه وفهمت مَا لم يفهموا[٣]

وقد هجر في محبة الجهاد في سبيل الله أهله وأولاده، ووطنه وسكنه، وسائر بلاده، وقنع من الدنيا بالسكون في ظل خيمةٍ تهبُ بها الرياح ميمنة وميسرة، ولقد وقعت عليه الخيمة في ليلةٍ ريحيَّةٍ على مرج عكا،

١- الروضتين (٢/٣١٠-٣١١).
٢- كشف الظنون (٢/١٢٧٥).
٣- الوافي بالوفيات (٨/١٤٥).

فلو لم يكن في البرج لقتلته، ولا يزيده ذلك إلا رغبةً ومصابرة واهتماماً[١].

وكان همُّهُ الأكبر ومقصوده الأعظم نصر الإسلام، وكسر الأعداء اللئام، ويعمل فكره في ذلك ورأيه وحده مع من يثق برأيه ليلًا ونهارًا، سرًا وجهارًا[٢].

وكان مغرمًا بالإنفاق في سبيل الله، وحُسِبَ ما أطلقه ووهبه مدَّة مُقامِه على عكا مرابطًا للفرنج من رجب سنة خمس وثمانين إلى يوم انفصاله عنها في شعبان سنة ثمان وثمانين، فكان اثني عشر ألف رأس من الخيل العِراب والأكاديش الجياد، للحاضرين معه في الجهاد، والقادمين عليه من البلاد، غير ما أطلقه من الأموال في أثمان الخيل المصابة في القتال[٣].

وَلِلنَّاسِ بِالمِلكِ النَّاصِرِ الصَّلاَ ... حِ صَلاَحٌ وَنَصْرٌ كَبِيْرُ

هُوَ الشَّمْسُ أَفلاَكُهُ فِي البِلاَ ... دِ وَمَطْلَعُهُ سَرْجُهُ وَالسَّرِيْرُ

إِذَا مَا سَطَا أَوْ حَبَا وَاحْتَبَى ... فَمَا اللَّيْثُ مِنْ حَاتِمٍ مَا ثَبِيْرُ

وكان يطوف حول العدو في كل يوم مرة أو مرتين إذا كان قريباً منهم. ولقد وصل في ليلة واحدة منهم نيف وسبعون مركبًا على عكا من بعد صلاة العصر إلى غروب الشمس وهو لا يزداد إلا قوة نفس.

١- سيرة صلاح الدين (ص٥٣).
٢- البداية والنهاية (١٦/٦٥٦).
٣- مرآة الزمان (٢٢/١٨).

ويخرق العساكر من الميمنة إلى الميسرة ويرتب الأطلاب ويأمرهم بالتقدم والوقوف في مواضع يراها. وكان يشارف العدو ويجاوره رحمه الله.

وانهزم المسلمون في يوم المصاف الأكبر بمرج عكا حتى القلب ورجاله، ووقع الكؤس والعلم وهو رضي الله عنه ثابت القدم مرابط مصابر مثابر في نفرٍ يسير حتى انحاز إلى الجبل بجمع النَّاس ويردهم ويخجلهم حتى يرجعوا، ولم يزل كذلك حتى نصر عسكر المسلمين على العدو في ذلك اليوم، وقتل منهم زهاء سبعة آلاف ما بين راجل وفارس ولم يزل رحمه الله مصابراً لهم[١].

وكلما مرَّ على جماعة من الجند يُصلُّون يقول: «مِن هنا يأتي النصر»، وكلما مرَّ على جماعة من الجند نائمين يقول: «مِن هنا تأتي الهزيمة»[٢].

وكان يُعنى بجنده ويتعهدهم، ويسأل عن صحة أمرائه، ومن دونهم في راحتهم ومنامهم، وأكلهم وشربهم، يحارب المحارب ساعات مخصوصة من النَّهار أو الليل ثمَّ يستريح أو يحارب مدةً معينة ثمَّ يذهب إلى ذويه، على أرقى الأصول المتعارفة في الحروب الحديثة.

والغنائم تقسم بين المحاربين بحيث يغتني أفرادهم وجماعاتهم، ويأخذون إمَّا رواتب أو إقطاعات، ولم تكن إقطاعاتهم كإقطاعات الغرب تورث

١- النوادر السلطانية (ص٥١-٥٢).

٢- لم أجده، وبعض الكتب المعاصرة تذكره، مثل كتاب «بشريات السلامة من أهوال القيامة» (٢/٢١٨).

على الأغلب بل تزول عن صاحبها بموته أو بعزله، ولذلك كان المحاربون متعلقين أبداً بسلطانهم وأميرهم، متفانين في إحسان الخدمة كأنهم يدافعون عن بيوتهم وأطفالهم[١].

وكان يوم المصاف -لقاء العدو- يدور على الأطلاب، ويقول: «**وهل أنا إلا واحد منكم؟**»[٢].

وَمَا رَجَعَتْ أعلامُك الصُّفْرُ سَاعَةً ... إِلَى أَن غَدَتْ أكبادُها السُّودُ تَرْجُفُ

كَبَا مِنْ أعاليه صَلِيبٌ وبِيْعَةٌ ... وشادَ بِهِ دِينٌ حنيفٌ ومُصْحَفٌ

أَيَسْكُنُ أَوْطانَ النَّبِيين عُصْبَة ... تمينُ لَدَى أيمانها وَهِي تَحْلِفُ[٣]

ولما كان بمرج عكا وهو على غايةٍ من مرضٍ اعتراه بسبب كثرة دماميل كانت ظهرت عليه من وسطه إلى ركبته بحيث لا يستطيع الجلوس، وكان مع ذلك يركب من بُكرة النَّهار إلى صلاة الظهر، وهو صابر على شدة الألم، ويقول: «**إذا ركبت يزول عنِّي ألمها حتَّى أنزل**»[٤]. فسبحان من جعله راحته من مرضه في الجهاد ومقارعة أهل الكفر والعناد، وسبحان من جعله لذته في قتال الأعداء حتى ينسى به الأوجاع.

١- خطط الشام (٢/٦٥).
٢- النجوم الزاهرة (٦/١٠).
٣- مفرج الكروب (٢/٨٤).
٤- الروضتين (٤/٣٩٥).

يا عاذِلَ المشتاقِ دَعهُ فَإِنَّهُ يَطوي عَلى الزَفَراتِ غَيرَ حَشاكا
لَو كانَ قَلبُكَ قَلبَهُ ما لُمتَهُ حاشاكَ مِمّا عِندَهُ حاشاك

وكان كثيرًا ما يقصد لقاءَ العدوِّ يوم الجمعة عند الصَّلاة؛ تبركًا بدعاءِ المسلمين والخطباءِ على المنابر[١]. يقول أبو عبد الله المازني عن فضل الدعوات التي كانت تصدح من أفواه الصالحين، ومن الخطب التي كانت تصدر من الوعاظ والمذكرين، والتي كانت من أسباب النصر بإذن ربِّ العالمين: «ومن عجيب الاتفاق أنَّ هذه ست قلاع ومدن فتحت في ستِ جمعٍ، وهي علامة قبول دعاء خطباء المسلمين وسعادة السلطان، حيث يسّر الفتوح في اليوم الذي تضاعف فيه الحسنات، ولم يتفق مثل هذا في تاريخ؛ وهي: جبلة، واللاذقية، وصهيون، وبكاس، والشغر، وسرمانية»[٢]. نعم اشترك الإعداد بجوانبه، فكان توفيقًا من الله للنصر على الأعداء، وكسر شوكتهم.

وكان يقول: «إلهي قد انقطعت أسبابي الأرضية في نصرة دينك، ولم يبق إلا الإخلاد إليك، والاعتصام بحبلك، والاعتماد على فضلك، أنت حسبي ونعم الوكيل»[٣].

١- قلادة النحر (٣٤٦/٤).
٢- مفرج الكروب في أخبار بني أيوب (٢٦٥/٢).
٣- النوادر السلطانية (ص٤٠).

ولما قيل له بعد رجوعه من الجهاد في بعلبك سنة (٥٧٤هـ)، وكانت سنة جدب وقحط، وأنَّها لا تصلح للجهاد، فقال: «**إِنَّ الله أَمر بِالْجِهَادِ، وتكفل بالرزقِ فَأمرُه وَاجِب الِامْتِثَال، ووعده ضَامِن الصدْق، فنأتي بِمَا كُلِّفنا لنفوز بِمَا كفِلَه، وَمن أغفل أمره أغفله**»[١].

وقال في فتحه لحصن اللاذقية سنة (٥٨٤هـ): «**علينا الاجتهاد في الجهاد، وهو الذي يُقِّدرنا على فتح البلاد، ولو اجتمع أهلُ الأرض ذات الطول والعرض، لتوكلنا على الله في اللقاء، ولم نبالِ بأعداد الأعداء**»[٢].

وكان كثيراً ما يقول: «**إنَّ مُرَادنا من البلاد رجالُها لا أموالها، وشوكتُها لا زهرتها، ومناظرتها للعدو لا نضرتها**»[٣].

وكتب السلطان إلى القاضي الفاضل كتابًا من بلاد الفرنج يخبرهُ عمَّا لاحَ له من أَمارات النَّصرِ، ويقول: «**ما أخاف إلا من ذنوبنا أن يأخذنا الله بها**».

فكتب إليه الفاضل: «فأمَّا قول مولانا إنَّنا نخاف أن نؤخذ بذنوبنا، فالذنوبُ كانت مثبتة قبل هذا المقام وفيه محيت، والآثام كانت مكتوبةٌ

١- البرق الشامي للعماد الكاتب (١٤٦/٣).
٢- الروضتين (٢٥/٤).
٣- خطط الشام (٦٦/٢).

ثمَّ عُفي عنها بهذه الساعات وعفِّيت، فيكفي مستغفرًا لسان السيف الأحمر في الجهاد، ويكفي قارعًا لأبواب الجنة صوتُ مقارعة الأضداد، وبعين الله موقفك، وفي سبيل الله مقامك ومنصرفك، وطوبى لقدمٍ سعت في مِنهاجك، وطوبى لوجهٍ تلثَّم بمثار عجاجك، وطوبى لنفسٍ بين يديك قتَلت وقُتِلَتْ، وأنَّ الخواطر بشُكْرِ الله فيك عن شُكْرها لك قد شُغِلتْ»[١].

عَزَلَ الفرنجة ثمَّ ولَّى جَيْشهُ ... أَعْظمْ بِهِ مِنْ صَارفٍ ومصرِّفِ
قد أَنْصفَ التَّوْحِيدَ من تثْلِيثِهِم ... وَأَقَامَ فِي الْإِنْجِيلِ حد الْمُصْحَفِ
مُغرًى بتجريحِ الرِّجَالِ لأنَّه ... يروْي أَحَادِيثَ العَوَالِي الزُّعَّفِ
مَلِكٌ لَهُ فِي الْحَرْبِ تَفَقُّهٍ ... وَله غَدَاةَ السِّلْمِ زُهْدُ تَصَوُّفِ
وَعَلِيهِ أُنْزِلَ فِي الْجِهَادِ مُفَصَّلٌ ... فلذاكَ يَقْرَؤُهُ بسبْعةِ أَحْرُفِ[٢]

وقد بلغت جموعهم في عكا خمسمائة ألف مقاتل، ويقال: ستمائة ألف. وكان جملة من قتل منهم مائة ألف مقاتل ولما انفصل الحال، وتسلموا عكا وقتلوا أكثر من كان بها، وساروا برمتهم نحو بيت المقدس؛ جعل يسايرهم منزلة منزلة، ومرحلة مرحلة وجيوشهم أضعاف أضعاف من

١- الروضتين (٤/١٨٩-١٩٠) فلله در السلطان المظفر وورعه وخوفه، ولله در القاضي الفاضل وتثبيته الإمام وتذكيره بخير المقام الذي هو فيه.
٢- الروضتين (٣/٣٦٦-٣٦٧).

معه، ومع هذا نصره الله وخذلهم، وأيده وقتلهم، وسبقهم إلى البيت المقدس، فصانه وحماه، وشيد بنيانه، وأطد أركانه، وصان حماه ولم يزل بجيشه مقيما به يرهبهم ويرعبهم، ويغلبهم ويسلبهم ويكسرهم ويأسرهم، حتى تضرعوا إليه، وخضعوا لديه، ودخلوا عليه أن يصالحهم ويتاركهم، وتضع الحرب أوزارها بينهم وبينه فأجابهم إلى ما سألوا على الوجه الذي أراده، لا ما يريدونه، وكان ذلك من جملة الرحمة التي خص بها المؤمنون؛ فإنَّه ما انقضت تلك السنون حتى ملك البلاد أخوه أبو بكر العادل، فعز به المسلمون، وذل به الكافرون[١].

قال ابن شداد: ولقد دخلتُ بين يديه في يوم ريح مطير إلى القُدس، كثير الوحل، فنضحت البغلة عليه من الطين حتى أهلكت جميع ما كان عليه، وهو يتبسم وأردت التأخر عنه بسبب ذلك فما تركني[٢].

وقال الموفق عبد اللطيف: أتيت، وصلاح الدين بالقدس، فرأيت ملكًا يملأ العيون روعة، والقلوب محبَّة، قريبًا بعيدًا، سهلًا، محببًا، وأصحابه يتشبهون به، يتسابّقون إلى المعروف، كما قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا﴾ [الحجر: ٤٧] وأول ليلة حضرته وجدت مجلسه حفلًا بأهل العلم يتذاكرون، وهو يحسن الاستماع والمشاركة،

١- البداية والنهاية (١٦/٦٥٨).
٢- الروضتين (٤/٤٠٠).

ويأخذ في كيفية بناء الأسوار، وحفر الخنادق، ويأتي بكل معنى بديع، وكان مهتمًا في بناء سور بيت المقدس وحفر خندقه، ويتولى ذلك بنفسه، وينقل الحجارة على عاتقه، ويتأسى به الخلق حتى القاضي الفاضل، والعماد إلى وقت الظهر، فيمد السماط، ويستريح، ويركب العصر، ثمَّ يرجع في ضوء المشاعل، قال له صانع: هذه الحجارة التي تقطع من أسفل الخندق رخوة[١].

وقال: «**متى يَسَّر الله تعالى فتح بقية الساحل؛ أوصيتُ وودعتُ، وركبتُ هذا البحر إلى جزائره، واتبعتُهم فيها حتى لا أُبقي على وجه الأرض مَن يكفر بالله أو أموت**».. ثمَّ قلتُ -ابن شداد-: ما هذه إلا نيَّةٌ جميلة، ولكن السلطان يُسَيِّر في البحر العساكر، وهو سور الإسلام ومنعته؛ فلا ينبغي أنْ يخاطر بنفسه. فقال: أنا أستفتيك: ما أشرف الميتتين؟ فقلتُ: الموت في سبيل الله. فقال: «**غاية ما في نفسي أنْ أموت أشرف الميتتين**»[٢].

وكان رحمه الله من عُظماء الشجعان، قويّ النَّفس، شديد البأس، عظيم الثبات، لا يهولُه أمر.

قال ابن شداد: ولقد رأيته مرابطًا في مقابلة عدَّةٍ عظيمةٍ من الفرنج،

١- الطبقات للسبكي (٧/٣٤٧-٣٤٨).
٢- النوادر السلطانية (ص٥٥) بتصرف.

ونجدتهم تتواصل، وعساكرهم تتواتر، وهو لا يزدادُ إلا قوةَ نفس وصبرًا. ولقد وصل في ليلة واحدةٍ منهم نيِّف وسبعون مركبًا على عكا، وأنا أعدُّها من بعد صلاة العصر إلى غروب الشَّمس، وهو لا يزداد إلا قوةَ نفس[١].

ومن الجهادِ في سبيل الله: جهادُ أهل البدع والحجر على أهل الباطل والزندقة، وتعظيم الشريعة، وكان الملك المظفر مُبْغضًا لكُتُبِ الفلاسفة وأرباب المنطق، ومن يعاند الشريعة، ولما بلغه عن السُّهْرَوَرْدي ما بلغه أمر ولده الملك الظاهر بقتله[٢].

والسُّهْرَوَرْدي هذا لجأ إلى ولده الظاهر، وهو بحلب، وكان يعرف الكيميا وشيئًا من الشعبذة، فافتتن به ولد السلطان الظاهر، وقربه وأحبه، وخالف فيه حملة الشرع، فكتب إليه أن يقتله لا محالة فصلبه عن أمر والده، وشهره، ويقال: بل حبسه بين حائطين حتى مات كمدًا، وذلك في سنة ست وثمانين وخمسمائة[٣].

وعلى العموم فمحاسن السلطان المظفر صلاح الدين جمة، لا سيَّما الجهاد، فله فيه اليد البيضاء ببذل الأموال والخيل المثمنة لجنده، وله

١- الروضتين (٤/٣٩٠).
٢- مرآة الزمان (٢٢/٢٠)، و«الروضتين» (٤/٣٨٥).
٣- البداية والنهاية (١٦/٦٥٧).

العقل الجيد، والفهم، والحزم، والعزم[١].

وللقائد المظفر (الفكرة والعمل) فكان من خير أعماله في الجهاد تأسيسه لجيش قوي يسير به ويسيره لقتال أعداء الله، ولعلَّ من أكثر فترات التاريخ الإسلامي نشاطًا للكمائن هي فترة الحروب الصليبية؛ لا سيَّما أيام السلطان صلاح الدين نظرًا لقرب مواقع الاحتكاك العدائي، واستمراره بين القوى الإسلاميَّة، والمرتكزات الصليبية؛ التي أقاموها على الجهات الساحليَّة من بلاد الشام، أو القريبة منها، وتعني الكنائن: إرسال جريدة، أو سرية من المحاربين الفرسان إلى جهاد العدو، ومباغتته، والإيقاع به في مناوشات محدودة لا تصل إلى حدَّ القتال الواسع النِّطاق. أي: إنَّ العملية كانت تبدأ في السرِّ، ولهذا كان ينبغي أن تتوفَّر في رجال الكمين جملةً من المواصفاتِ لكي يستطيعوا أنْ يقوموا بمهمتهم بالصُّورة المطلوبة[٢].

وقد جعل رحمه الله **الإقطاعات الزراعية لخدمة الجهاد**، وكان يقطع الأراضي الزراعية والقرى للقادة الحربيين، على عادة نور الدين رحمه الله سابقاً، ولكن

١- سير أعلام النبلاء (٢١/٢٨٢).

٢- الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين (ص١٨٩)، وعنه في «صلاح الدين وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية» (ص٣٨٩)، وكان جيشه على قمة عالية من التقدم (ففيه الزي العسكري المميز، والجيش مقسم على أقسام (الخيالة، والرجالة)، وكذلك حملة أعلام الجيش. وفيه: الفرقة الهندسية، والفرقة العسكرية.

وفيه: ديوان الجيش، وتنظيم البريد، وفرق الاستكشاف، وحمام البريد «وهو ما يعرف بالحمام الهوادي».

مع تطويرات إضافية، وكان يأخذ الإقطاع من كل أمير يهمل في واجباته، وكان صلاح الدين يعطي مثلاً: أرضاً زراعية لهذا القائد العسكري ممن معه فيستفيد منها، لا يتملكها هو ولا يورثها لأولاده، يستفيد منها ومن محاصيلها وخيراتها بشروط مقابل الخدمات الحربية. فمثلاً: لا بد لهذا الأمير الذي أقطعه صلاح الدين هذه الأراضي أن يقدم العساكر في وقت الحرب، وأن ينفق على عساكره، وأن يعدها، وأن يلحق بالسلطان على رأس فرقته الحربية إذا طلب منه ذلك، وأن يرسل العتاد والسلاح والجند، وكذلك على هذا الأمير الذي أقطع هذا الإقطاع أن يراقب تحركات الأعداء، ويقر الأمن الداخلي في الإقطاع الذي أقطعه إياه، وكان لدى صلاح الدين ﵀ ديوان جيش منظم لضبط الإقطاعات.. فيه أسماء الجند، ومراتبهم، ورواتبهم، ويصدر هذا الديوان إحصائيات دورية فيها أعداد الجند وقدراتهم، وكان هذا الديوان يصرف على العمائر والتحصينات وبناء الأسوار والقلاع، وكان فيه مسئولون يحاسبون أمراء الإقطاعات على تقصيراتهم، ويرفعون بشأنهم إلى صلاح الدين ﵀.

وأمَّا بالنسبة لجانب الأسلحة والمؤن والعتاد، فإنَّه كان ﵀ يحرص على إعداد ما يكافئ المهمة، وقد اهتم بقضية السلاح اهتماماً كبيراً حتى طلب من أحد رجاله أن يؤلف له كتاباً حول الموضوع يشمل أنواع السلاح،

وطرق صناعتها، وكذا استخدم الأسلحة التي تناسب الغرض المنشود من الأثقال والأحمال من العدد الواقية، والدروع السابغة، والنصال، والخوذ، والنقود، والمنجنيقات العادية والتركية والإفرنجية، وكان لدى صلاح الدين خبراء بالمنجنيقات، **وطور المسلمون سلاحاً مهماً جداً من خلال الحروب الصليبية بفضل الله، ثمَّ بدعم صلاح الدين وهو سلاح النفط**؛ وسلاح النفط جمع صلاح الدين من أجله النفاطين والزراقين؛ النفاطين: خبراء في هذا النفط، وطوروا سلاحاً وهو خليط من خلطة من الزيوت، والنورة المطفأة وغير المطفأة، والنفط، والصمغ، والكبريت، والخل، وشحوم الحيوانات، ونخالة الحنطة، وهي تخضع لعمليات شبه كيميائية، لها طرق حتى تصبح هذه الخلطة مثل الألغام المتفجرة تقريباً، وكانت هذه الخلطة ترمى من المنجنيقات بواسطة النشاب وعلى ظهور الخيل، وتوضع في قشر البيض بعد إخراج ما في البيضة، فتوضع الخلطة داخل هذه البيضة ويغلق عليها وترمى من أقواس مخصوصة، كما طوروا أنواعاً من سلاح النفط يسير على الماء دون أن ينطفئ ليصطدم بمراكب العدو، ويحرقها ويغرقها في البحر أشبه بالألغام المائية الموجودة الآن.

وساعد الخليفة العباسي الذي أسدى له صلاح الدين خدمات جليلة بإرسال حمولات من النفط ومعهم جماعة من النفاطين وجماعة من الزراقين

-خبراء الرمي- النفاطين: خبراء النفط التركيبة، والزراقين: خبراء الرمي، فكان عندهم هذه الزراقات أنابيب خاصة لرمي هذه المواد الملتهبة. وكان من الأسلحة التي استخدمها صلاح الدين أيضاً: المثلثات والمسدسات؛ والمثلثات: عبارة عن حديدة لها شوكتان تغرس في الأرض وشوكة على ظاهر الأرض، والمسدسات: ثلاث شوكات في الأرض وثلاثة على سطح الأرض، حتى إذا داستها خيول الأعداء نفرت وأوذيت إيذاءً شديداً، وطاحت في الأرض وطرحت من عليها، وكانت ترمى في الطرق التي من المتوقع أن يسلكها الأعداء. وطور المسلمون كذلك سلاح الدبابات؛ والدبابة كانت عبارة عن بناء من الخشب.. تصميم معين، يغلف بقطع من القماش والستائر المبلولة بالخل، والخشب المضادة للنيران، وكانت تسير على عجلات خشبية، وكان يستتر في داخلها الجند، أو تملأ بالمواد الملتهبة لتدفع دفعاً إلى الأسوار لتدمرها، وكانت تحمي من بداخلها. وكذلك تستخدم هذه الستائر التي صنعها المسلمون لحماية الأبراج والدبابات والسفن والمنجنيقات، هذا بخلاف السيوف والرماح والتروس والدروع والجنديات التي كان يسير بها مجموعة من الجنود تقيهم ما أمامهم، وكان لدى جنود صلاح الدين مطارق خاصة لتهشيم خوذ

الأعداء وضربهم على رءوسهم[١].

١- صلاح الدين وتجديد الجهاد (ص٩-١١).

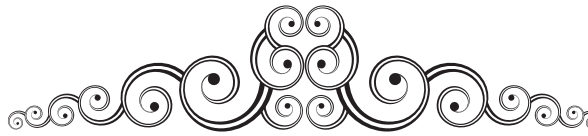

صفة إقامة الجمعة بالأقصى شرفه الله تعالى في رابع شعبان ثامن يوم الفتح

لا يتم النصر إلا بثلاث: «**معرفة العدو، وإحكام الخطة، وبذل الطاقة**»[١]. وقد فعل السلطان المظفر وحرص على هذه الثلاثية وغيرها، وكان الله معه ومؤيده، فها هو الآن يتسلم البيت المقدس بعد تلك المشاهد والوقائع التي يشيب لها الرأس.

فإنَّه لما نزه البيت المقدس ممَّا كان فيه من الصلبان والنواقيس، والرهبان والخنازير والقساقيس، ودخله أهل الإيمان، ونودي بالأذان وهرب الشيطان وقرئ القرآن، وطهر المكان، فكان إقامة أول جمعة فيه في اليوم الرابع من شعبان، بعد يوم الفتح بثمان، فنصب المنبر إلى جانب المحراب المطهر، وبسطت البسط الرفيعة في تلك العراص الوسيعة، وعلقت القناديل وتلي التنزيل عوضًا عمَّا كان يقرأ من التحريف في الإنجيل، وجاء الحق وبطلت تلك الأباطيل، وصفت السجادات وكثرت السجدات، وتنوعت العبادات، وأديمت الدعوات، ونزلت البركات، وانجلت الكربات،

١- علمتني الحياة (١/١٣٢).

وأقيمت الصلوات، ونطق الأذان، وخرس النَّاقوس، وحضر المؤذنون وغاب القسوس، وطابت الأنفاس، واطمأنت النُّفوس، وأقبلت السعود وأدبرت النُّحوس، وحضر العبَّاد والزُّهاد والأبدال والأقطاب والأوتاد، وعبد الواحد، وكثر الراكع والساجد، والقائم والقاعد، وامتلأ الجامع، وسالت لرقة القلوب المدامع، وقال الناس: «هذا يومٌ كريم وفضل عظيم وموسم وسيم، وهذا يوم تجاب فيه الدعوات، وتصب البركات، وتسيل العبرات، وتُقال العثرات»، فأذن المؤذنون للصَّلاة وقت الزوال، وكادت القلوب تطير من الفرح بتلك الحال، ولم يكن السلطان إلى تلك الساعة عُين خطيبًا، وقد تهيأ لها خلق من العلماء خوفًا أن يدعي إليها أحدهم فلا يكون نجيبًا، فبرز للخطباء المرسوم السلطاني الصلاحي، وهو في قبة الصخرة الغراء، أن يكون القاضي محيي الدين بن الزكي اليوم خطيبًا، فلبس الخلعة السوداء وصعد المنبر، وقد كساه الله البهاء، وأكرمه بكلمة التقوى وأعطاه السكينة والوقار والسناء، فخطب بالنَّاسِ خطبة عظيمةً سَنِيَّةً فصيحةً بليغةً، ذكر فيها شرف البيت المقدس، وما ورد فيه من الفضائل والترغيبات، وما فيه من الدلائل والأمارات، وما منَّ اللهُ به على الحاضرين من هذه النعمة التي تعدل الكثير من القربات[1].

١- الروضتين (٣/٣٧٧-٣٧٨)، والمثبت من «البداية والنهاية» (١٦/٥٨٨-٥٨٩).

وقال العماد الكاتب: ونطق الأذان وخرس الناقوس، وحضر المؤذنون وغاب القسوس، وزال العبوس والبوس، وطابت الأنفاس والنفوس، وأقبلت السعود وأدبرت النحوس. وعاد الإيمان الغريب منه إلى موطنه، وطلب الفضل من معدنه. وورد القراء وقرئ الأوراد، واجتمع الزهاد والعباد، والابدال والأوتاد. وعبد الواحد ووحد العابد،

وتوافد الراكع والساجد، والخاشع والواجد، والزاهي والزاهد، والحاكم والشاهد، والجاهد والمجاهد، والقائم والقاعد، والمتهجد الساهد، والزائر والوافد.

وصدح المنبر وصدع المذكر، وانبعث المعشر وذكر البعث والمحشر. وأملى الحفاظ، وأسلى الوعاظ. وتذاكر العلماء، وتناظر الفقهاء، وتحدث الرواة وروى المحدثون، وتحنف الهداة وهدى المتحنفون. وأخلص الداعون ودعا المخلصون، وأخذ بالعزيمة المترخصون، ولخص المفسرون وفسر الملخصون. وانتدى الفضلاء، وانتدب الخطباء. وكثر المترشحون للخطابة، المتوشحون بالإصابة، المعروفون بالفصاحة، الموصوفون بالحصافة[1].

١- الفتح القسي (٧٦-٧٨).

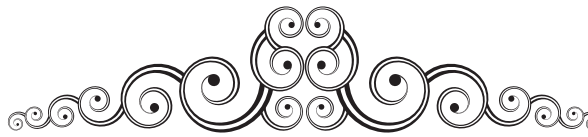

ذكر ما تحصل قبل الفتح

ذكر أبو الحكم بن برجان الأندلسي في "تفسيره" عن فتح القدس في السنة التي فتح فيها وعمر نور الدين إذ ذاك إحدى عشرة سنة، وقد رأيتُ أنا ذلك في كتابه، ذكر في تفسير أول سورة الرُّوم أنَّ البيتَ المقدَّس استولت عليه الرُّوم عام سبعةٍ وثمانين وأربع مئة، وأشار إلى أنَّه يبقى بأيديهم إلى تمام خمس مئة وثلاث وثمانين سنة، قال: ونحن في عام اثنين وعشرين وخمس مئة. فلم يستبعد نور الدين ﵀ لما وقف عليه أن يمتد عمره إليه، فهيأ أسبابه حتَّى منبر الخطابة فيه تقربًا إلى الله تعالى بما يبديه من طاعته ويخفيه.

وهذا الذي ذكره أبو الحكم الأندلسي في "تفسيره" من عجائب ما اتَّفق لهذه الأمة المرحومة، وقد تكلَّم عليه شيخنا أبو الحسن علي بن محمد في تفسيره الأول، فقال: وقد وقع في تفسير أبي الحكم الأندلسي في أول سورة الرُّوم إخبارٌ عن فتح البيت المقدس، وأنَّه يُنزعُ من أيدي النَّصارى سنة ثلاث وثمانين وخمس مئة.

قال: وقال لي بعض الفقهاء: إنَّه استخرجَ ذلك من فاتحةِ السورةِ، قال:

فأخذت السورة، وكشفت عن ذلك، فلم أره أخذ ذلك من الحروف، وإنَّما أخذه فيما زعم من قوله تعالى: ﴿الم (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ فبنى الأمر على التَّاريخ كما يفعل المنجمون، ثمَّ ذكر أنَّهم يغلبون في سنة كذا، ويغلبون في سنة كذا على ما تقتضيه دوائر التقدير.

قال: وهذه نَجَامة وافقت إصابة إن صحَّ أنَّه قال ذلك قبل وقوعه، وكان في كتابه قبل حدوثه، وليس ذلك بمأخوذٍ من الحروف ولا هو من قبيل الكرامات أيضًا، فإنَّ الكرامة لا تكتسب بحساب، ولا تفتقر إلى تاريخ، ولذلك لم يوافق الصواب لـمَّا أدار الحساب على القراءة الأخرى الشَّاذَّة التي هي بفتح الغين من ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ﴾ ويوضح ذلك أنَّه قال في سورة القدر: لو عُلِمَ الوقت الذي أنزل فيه القرآن لَعُلِم الوقت الذي يُرفعُ فيه[1].

١- الروضتين (٣/٣٩٥-٣٩٦)، و«وفيات الأعيان» (٤/٢٣٠)، وقال: «ولما وقفت أنا على هذا البيت وهذه الحكاية لم أزل أتطلب تفسير ابن برجان حتى وجدته على هذه الصورة، لكن كان هذا الفصل مكتوبا في الحاشية بخط غير الأصل، ولا أدري هل كان من أصل الكتاب أم هو ملحق به؟ وذكر له حسابا طويلًا وطريقًا في استخراج ذلك حتى حرره من قوله بضع سنين».

وعلَّق الحافظ ابن كثير الدمشقي في «البداية والنهاية» (١٦/٥٩٣)، عليه بقوله (نكتة غريبة)، ونقل فيه ما ذكره أبو شامة.

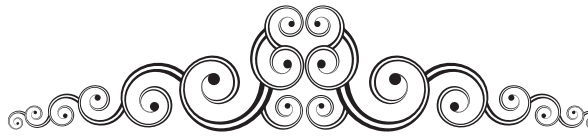

ذكر ما جرت عليه حال الفرنج في خروجهم من القدس ومقارنة بما فعله النصارى بالمسلمين عندما دخلوا القدس.

شرع الإفرنج في بيع الأمتعة، واستخراج ذخائرهم المودعة، وباعوها بالمجان في سوق الهوان، وتقاعد النَّاسُ بهم فابتاعوها بأرخصِ الأثمان.

وباعوا بأقلِّ من دينار كل ما يساوي أكثر من عشرة، وجدوا في ضمِّ ما وجدوا من أمورٍ لهم منتشرة. وكنَّسوا كنائسهم، وأخذوا منها نفائسهم، ونقلوا منها الذهبيات والفضيات من الأواني والقناديل، والحريريات والمذهَّباتِ من الستور والمناديل.

ونقضوا من الكنائسِ الكنائن، واستخرجوا من الخزائنِ الدفائن، وجمع البطرك الكبير كل ما كان على القبر من صفائح التبر، ومصوغات العسجد، ومصنوعات اللجين، وجمع ما كان في قمامة من الجنسين والنسجين.

فقلت للسلطان: هذه أموال وافرة، وأحوال ظاهرة، تبلغ مائتي ألف دينار، والأمان على أموالهم لا أموال الكنائس والأديار! فلا تتركها في أيدي هؤلاء الفجار.

فقال: إذا تأولنا عليهم نسبونا إلى الغدر، وهم جاهلون بسر هذا الأمر، ونحن نجريهم على ظاهر الأمان، ولا نتركهم يرمون أهل الإيمان بنكث الإيمان، بل يتحدثون بما أفضناه من الإحسان.

فتركوا ما ثقل، وحملوا ما عز وخف، ونفضوا من تراب تراثهم وقمامة قمامتهم الكف. وانتقل معظمهم إلى صور، وكتفوا بالديجور، وبقي منهم زهاء خمسة عشر ألفًا امتنعوا من مشروع الحق، فاختصوا بمشروط الرق[١].

وكان على رأس قبة الصخرة صليب كبير من ذهب، فلمَّا دخل المسلمون البلد يوم الجمعة تسلَّق جماعة منهم إلى أعلى القبةِ ليقتلعوا الصليب، فحين صعدوا نظر المسلمون إليهم والإفرنج لينظروا ماذا يصنعون، فلمَّا قلعوه وسقط، صاح النَّاسُ كلهم صوتًا واحدًا، من البلد ومن ظاهره، المسلمون والفرنج، أمَّا المسلمون فكبّروا فرحًا، وأمَّا الفرنج فصاحوا توجعًا وتفجعًا، فسمع النَّاس صيحةً كادتْ الأرضُ تميد بهم لعظمها وشدتها، ولم يتأتَ صلاة الجمعة يوم الفتح، وضاق الوقت لأدائها[٢].

وكان المسجد الأقصى -لاسيَّما محرابه- مشغولًا بالخنازير والخبث، وما أحدثوه من الأبنية؛ فإنَّ الداويّة[٣] بنوا غربي الأقصى أبنية ليسكنوها،

١- الفتح القسي في الفتح القدسي (ص٧٦).
٢- مفرج الكروب (٢/٢١٧).
٣- تعني فرسان المعبد.

وعملوا فيها ما يحتاجون إليه من هرى[١] ومستراح، وغير ذلك، وأدخلوا بعض الأقصى في أبنيتهم، وبنوا في وجه المحراب جدارا، وتركوه هريًا للغلة، وقيل: اتخذوه مستراحًا عنادًا للإسلام وبغيًا، فأمر السلطان بإزالة ما أحدثوه من البنيان، وكشف الجدار الساتر للمحراب، وتنظيفه وما حوله من الأقذار والنجاسات، ونصب المنبر لإقامة الخطبة الإسلاميَّة، ونقض ما أحدثوه بين السواري، وبسط صحن الجامع بالبسط النفيسة بدل الحصر والبواري، وتعليق القناديل وإقامة شعار الدين[٢].

وقال أبو عبد الله المازني الحموي المعروف بابن واصل: «وكان في القدس بعض نساء ملوك الروم وقد ترهبت وأقامت به، ومعها من الحشم والعبيد والجواري خلق كثير، ولها من الأموال والجواهر النفيسة شيء عظيم، فطلبت الأمان لنفسها ولمن معها، فأمنها وسيرها.

وكذلك خرجت زوجة الملك المأسور وابنة الملك أماري، وكانت مقيمة بالقدس مع مالها من الخدم والخول والجواري، فاستأذنت السلطان في الاجتماع بزوجها، وكان مقيمًا في برج نابلس، موكلًا به، فأذن لها في ذلك، فتوجهت إليه وأقامت عنده.

١- الهري، والجمع «اهراء» و «هرى» البيت الكبير الضخم تخزن فيه الغلال أو طعام السلطان (اللسان).

٢- مفرج الكروب (٢/٢١٦).

وخرج البطرك الكبير الذي للفرنج، ومعه من أموال البيع -منها الصخرة والأقصى- ما لا يعلمه إلا الله تعالى، وكان له من المال مثل ذلك، فلم يعرض له السلطان، فقيل له: «خذ ما معه لتقوى به المسلمين» فقال: «لا أغدر به»؛ ولم يأخذ منه غير عشرة دنانير، وسيّر الجميع ومعهم من يحميهم إلى مدينة صور»[١].

لقد تنافس بنو أيوب فيما يفعلونه من الخيرات بالقدس الشريف للقادمين والظاعنين والقاطنين، فجزاهم الله خيرا أجمعين، وعزم السلطان على هدم قمامة وجعلها دكا لتنحسم مادة النصارى من بيت المقدس فقيل له: إنَّ هؤلاء لا يتركون الحج إلى هذه البقعة، ولو تركتها قاعًا صفصفًا، وقد فتح هذه البلد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ وترك هذه الكنيسة بأيديهم، فلك في ذلك أسوة. فأعرض عنها وتركها على حالها تأسيًا بعمر بن الخطاب أحد الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين، ولم يترك بها من النَّصارى سوى أربعة يخدمونها، وحال بين النَّصارى وبينها، وهدم المقابر التي كانت لهم عند باب الرحمة، وعفى آثارها، وهدم ما كان هناك من القباب وعجل دمارها.

وأمَّا أسارى المسلمين الذين كانوا بالقدس؛ فإنَّ السلطان أطلقهم، وأطلق

١- مفرج الكروب (٢/٢١٦).

لهم إعطاءات هنية، وكساهم حللًا سَنيَّةً، وانطلق كل منهم إلى وطنه، وعاد إلى أهله وسكنه، فلله الحمد على نعمه ومننه[١].

١- البداية والنهاية (٥٩٤/١٦). ويقول الشيخ أبو الحسن الندوي في «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟» (ص١١) ويظهر أن أخلاق صلاح الدين، وحياته التي انطوت على البطولة، قد أحدثت في أذهان المسيحيين في عصره تأثيراً سحرياً خاصاً، حتى أن نفراً من الفرسان المسيحيين، قد بلغ من قوة انجذابهم إليه، أن هجروا ديانتهم المسيحية، وهجروا قومهم وانضموا إلى المسلمين، وكذلك كانت الحال عندما طرح النصرانية فارس انكليزي من فرسان المعبد يدعى ((روبرت أوف سانت ألبانس)) Robertof St. Albans عام ١١٨٥ م واعتنق الإسلام ، ثم تزوج بإحدى حفيدات صلاح الدين وبعد عامين غزا صلاح الدين ((فلسطين)) وهزم الجيش المسيحي هزيمة منكرة في واقعة((حطين)) وكان جوي Guy ملك بيت المقدس بين الأسرى.

وحدث في مساء المعركة أن ترك الملك ستة من فرسانه، وفروا إلى معسكر صلاح الدين بمحض إرادتهم.

ويقول الكاتب الإنجليزي (لين بول): «إنَّها كانت فرصة للملك المسلم أنْ يعلم المسيحيين معنى التسامح». «صلاح الدين والصليبيون» (ص٢١٦)، نقلًا عنه «صلاح الدين» للصلابي (ص٥٤٠).

وينقل الصلابي بنفس الكتاب السابق (ص٥٤٤): عن (جيمس رستون) -والفضل ما شهدت به الأعداءُ- «وهكذا سلك جنود صلاح الدين سلوكًا مثاليًا في احتلالهم للقدس سنة ١١٧٨م، وقد نظر صلاح الدين لنفسه، وسمعته بعدم الانتقام لما فعله الصليبيون في الحرب الأول سنة ١٠٩٩م، وبسبب حمايته لكنيسة القيامة، وأماكن مسيحية أخرى كثيرة، وسيذكر الجميع تسامحه تجاه أهل الأديان الأخرى، وتجاه الأماكن المقدسة للدين المسيحي، ويبدو: أن أفعاله اعتبرت علما، ونموذجًا على كيفية سلوك المسلك الصالح، فسبب عفوه ووجوه الخير المتعددة في طبيعته، وسلوكه اتجاه أعدائه سيظلُّ مشهورًا إلى الأبدِ باللُّطفِ، والتَّسامح، والحكمة».

وفي «الروضتين» (أحداث سنة ٥٨٦هـ) (٢٣٦/٤) «وكان قد استأمن من الفرنج خلقٌ عظيم أخرجهم الجوع إلينا، وقالوا للسلطان: نحن نخوض البحر في براكس ونكسب من العدو ويكون الكسبُ بيننا وبين المسلمين

فأذِن لهم، وأعطاهم بركوسا -وهو المركب الصغير- فركبوا فيه، وظفروا بمراكب لتجار العدو، بضائعهم معظمها فضة مصوغة، وغير مصوغة، فأسروهم، وكسبوهم وأحضروهم بين يدي

ويقول ابن الأثير عن أحداث سنة (٥٨٥ هـ): «وصلاح الدين كان كلَّما فتح مدينة أو قلعة أعطى أهلها الأمان، وسيرهم إليها بأموالهم ونسائهم وأولادهم»[١].

وقال: «وأمَّا صاحب برزية، فإنَّه أسر هو وامرأته وأولاده، ومنهم بنت له معها زوجها، فتفرقهم العسكر، فأرسل صلاح الدين في الوقت وبحث عنهم واشتراهم، وجمع شمل بعضهم ببعض، فلما قارب أنطاكية أطلقهم وسيرهم إليها»[٢].

ويقول الحافظ ابن كثير عن أحداث سنة (٥٨٧ هـ): تقدم السلطان بعساكره فنزل ظاهر عسقلان فأشار ذوو الرأي على السلطان بتخريب عسقلان خشية أن يتملكها الكفار ويجعلوها وسيلة إلى أخذ بيت المقدس -صانه الله تعالى- أو يجري عندها من الحرب والقتال نظير ما كان عند عكا أو أشد فبات السلطان ليلته مفكرًا في ذلك، ولما أصبح وقد أوقعَ اللهُ في قلبهِ أن خرابها هو المصلحة فذكر ذلك لمن حضره، وقال

السلطان، فأعطاهم السلطان جميع ما غنموه.

قال العماد: فلمَّا أكرموا بهذه المكرمة، أثنوا على اليد المنعمة، وأسلم منهم شطرُهم، وأحضروا مائدة فضَّةٍ عظيمة، وعليها مكبَّة عالية، ومعها طبقٌ يماثلها في الوزن».

١- الكامل (٦٩/١٠).

٢- المصدر نفسه (٥٦/١٠).

لهم: «والله لموت جميع أولادي أهون عليَّ من تخريب حجر واحد منها، ولكن إذا كان هذا فيه مصلحة للمسلمين فلا بأس به»[١]. فرحمه الله على حرصه وأخلاقه، ولم يقبل بالتخريب كسياسة؛ بل رفضه وقبل به في حال تحصل به مصلحة للمسلمين، فأين هذا ممّا يفعله الغزاة الحاقدون عندما يأخذون بلاد المسلمين!!

مَلكْنا فكان العَفْو منَّا سَجيَّةً ... فلمَّا ملكْتُمْ سالَ بالدَّمِ أبْطَحُ
وحَلَّلْتُمُ قتلَ الأسارى وطالَما ... غَدوْنا عن الأسْرى نَعفُّ ونصفَح
فحسْبُكُمُ هذا التَّفاوتُ بيْنَنا ... وكلُّ إناءٍ بالذي فيهِ يَنْضَحُ[٢]

وبالمقارنة بين ما فعله الفرنج حينما دخلوا المسجد الأقصى، وما فعله الناصر صلاح الدين نجد أنَّ ابن الأثير رحمه الله يخبرنا فيقول عن أحداث سنة (٤٩٢هـ): «وقتل الفرنج بالمسجد الأقصى، ما يزيد على سبعين ألفًا، منهم جماعة كثيرة من أئمة المسلمين، وعلمائهم، وعبادهم، وزهادهم، ممَّن فارق الأوطان وجاور بذلك الموضع الشريف، وأخذوا من عند الصخرة نيفًا وأربعين قنديلًا من الفضة، وزن كل قنديل ثلاثة آلاف وستمائة درهم، وأخذوا من القناديل الصغار مائة وخمسين قنديلًا نقرة، ومن

١- البداية والنهاية (١٦/٦٣٤).
٢- شذرات الذهب (٦/٤١٠).

الذهب نيفًا وعشرين قنديلًا، وغنموا منه ما لا يقع عليه الإحصاء»[١].

أحلَّ الكفرُ بالإسلامِ ضَيمًا ... يطولُ عليه للدِّين النَّحيبُ

فحقٌّ ضائعٌ وحِمًى مُباحٌ ... وسيفٌ قاطعٌ ودمٌ صَبيبُ

وكم من مسلمٍ أمسى سليبًا ... ومسلمةٍ لها حَرَمٌ سليبُ

وكم من مسجدٍ جَعلوهُ ديرًا ... على مِحرابِهِ نُصِبَ الصليبُ

دمُ الخِنزيرِ فيهِ لهُمْ خَلوقٌ ... وتحريقُ المصاحفِ فيه طيبُ

أمورٌ لو تأملهُنَّ طِفْلٌ ... لَطَفَّلَ في عوارضِهِ المشيبُ

أتُسبى المسلماتُ بكلِّ ثغرٍ ... وعيشُ المسلمين إذًا يطيبُ

أما واللهِ والإسلامُ حقٌّ ... يدافعُ عنه شُبَّانٌ وشِيبُ

فقلْ لذوي البصائرِ حيث كانوا ... أجيبوا اللهَ ويحكُمُ أجيبوا[٢]

ويقول الحافظ ابن كثير: «فلمَّا سمع الناس ببغداد هذا الأمر الفظيع هالهم ذلك وتباكوا، وقد نظم أبو سعد الهروي كلامًا قرئ في الديوان وعلى المنابر، فجهش النَّاس بالبكاء، وندب الخليفة الفقهاء إلى الخروج إلى البلاد ليحرضوا الملوك على الجهاد، فخرج ابن عقيل وغير واحد من أعيان الفقهاء، فساروا في النَّاسِ فلم يفد ذلك شيئًا، فإنا لله وإنا إليه راجعون، فقال في ذلك أبو المظفر الأبيوردي:

١- الكامل (٨/٤٢٥).
٢- مرآة الزمان (١٩/٥٠٠).

مَزَجْنَا دِمَاءً بِالدُّمُوعِ السَّوَاجِمِ ... فَلَمْ يَبْقَ مِنَّا عُرْضَةٌ لِلْمَرَاجِمِ

وَشَرُّ سِلَاحِ الْمَرْءِ دَمْعٌ يُفِيضُهُ ... إِذَا الْحَرْبُ شُبَّتْ نَارُهَا بِالصَّوَارِمِ

فَإِيهًا بَنِي الْإِسْلَامِ إِنَّ وَرَاءَكُمْ ... وَقَائِعَ يُلْحِقْنَ الذُّرَى بِالْمَنَاسِمِ

وَكَيْفَ تَنَامُ الْعَيْنُ مِلْءَ جُفُونِهَا ... عَلَى هَفَوَاتٍ أَيْقَظَتْ كُلَّ نَائِمِ

وَإِخْوَانُكُمْ بِالشَّامِ يُضْحَى مَقِيلُهُمْ ... ظُهُورَ الْمَذَاكِي أَوْ بُطُونَ الْقَشَاعِمِ

تَسُومُهُمُ الرُّومُ الْهَوَانَ وَأَنْتُمْ ... تَجُرُّونَ ذَيْلَ الْخَفْضِ فِعْلَ الْمُسَالِمِ

وَبَيْنَ احْتِلَاسِ الطَّعْنِ وَالضَّرْبِ وَقْفَةٌ ... تَظَلُّ لَهَا الْوِلْدَانُ شِيبَ الْقَوَادِمِ

وَتِلْكَ حُرُوبٌ مَنْ يَغِبْ عَنْ غِمَارِهَا ... لِيَسْلَمَ يَقْرَعْ بَعْدَهَا سِنَّ نَادِمِ

سَلَلْنَ بِأَيْدِي الْمُشْرِكِينَ قَوَاضِبًا ... سَتُعْمَدُ مِنْهُمْ فِي الْطُّلَى وَالْجَمَاجِمِ

يَكَادُ لَهُنَّ الْمُسْتَجِنُّ بِطِيبَةٍ ... يُنَادِي بِأَعْلَى الصَّوْتِ يَا آلَ هَاشِمِ

أَرَى أُمَّتِي لَا يَشْرَعُونَ إِلَى الْعِدَا ... رِمَاحَهُمْ وَالدِّينُ وَاهِي الدَّعَائِمِ

وَيَجْتَنِبُونَ الثَّأْرَ خَوْفًا مِنَ الرَّدَى ... وَلَا يَحْسَبُونَ الْعَارَ ضَرْبَةَ لَازِمِ

أَيَرْضَى صَنَادِيدُ الْأَعَارِيبِ بِالْأَذَى ... وَتُغْضِي عَلَى ذُلٍّ كُمَاةُ الْأَعَاجِمِ

فَلَيْتَهُمْ إِذْ لَمْ يَذُودُوا حَمِيَّةً ... عَنِ الدِّينِ ضَنُّوا غَيْرَةً بِالْمَحَارِمِ

وَإِنْ زَهِدُوا فِي الْأَجْرِ إِذْ حَمِيَ الْوَغَى ... فَهَلَا أَتَوْهُ رَغْبَةً فِي الْمَغَانِمِ[1]

وكان ببيت المقدس يومئذ شاب مأسور من أهل دمشق، فكتب أبياتًا

١- البداية والنهاية (١٦/١٦٦-١٦٧)، و«فضائل القدس» لابن الجوزي (ص١٣).

على لسان القدس الشريف وأرسلها إلى السلطان صلاح الدين:

يَا أيُّهَا الملِكُ الّذِي ... لِمَعالِمِ الصُلبانِ نَكّس
جاءَتْ إليكَ ظَلامَةٌ ... تَسْعَى مِن البيتِ المقَدّس
كلُ المساجِدِ طُهِرَتْ ... وأنا على شَرَفِي مُنَجَّس

فأخذته غيرة الإسلام وكانت الأبيات هي الداعية له على فتح بيت المقدس، ويقال: «إن السلطان وجد في الشاب صاحب الأبيات أهلية فولاه الخطابة واستمر به فيها»[١].

تُسْعُونَ عَامًا بِلَادُ اللهِ تَصْرَخُ والـ ... ـلْإِسْلَامُ نُصَّارُه صُمٌّ وعُمْيانُ
فَالْآن لبَّى صَلَاحُ الدِّينِ دَعْوَتَهُمْ ... بِأَمْرِ مَنْ هُوَ للمِعْوَانِ مِعْوَانُ[٢]

وقد قتل جماعة من العلماء في الدفاع عن البيت المقدس، والثبات فيه في وجه الغاصبين والمعتدين، ومن هؤلاء لا على سبيل الحصر:

١- كامل بن ديسم بن مجاهد بن عروة بن تغلب بن محمود أبو الحسن النصري الفقيه العسقلاني المعروف المقدسي.

قال ابنه: أن أباه قتلته الفرنج خذلهم الله يوم دخلوا ببيت المقدس وهو يصلي وكان دخولهم بيت المقدس في شعبان سنة اثنتين وتسعين

١- إتحاف الأخِصّا بفَضَائل المسجد الأقصى للأسيوطي (١/٢٧٤)
٢- الروضتين (٣/٣٧٠).

وأربعمائة[١].

٢- يوسف بن إبراهيم أبو الفتح الزنجاني (ت ٤٩٢ هـ).

٣- أبو بكر الطوسي (ت ٤٩٢ هـ).

قال ابن عساكر الدمشقي: قرأت بخط أبي محمّد بن صابر سألت أبا المكارم الهروي عن وفاة أبي بكر الطوسي وأبي الفتح الزنجاني، فقال: قتلتهما الفرنج يوم فتح بيت المقدس[٢].

٤- عبد الجبار بن أحمد بن يوسف الرازي الشافعي تفقه على الخجندي بأصبهان ثمَّ استوطن بغداد مدة، ثمَّ انتقل إلى بيت المقدس وسلك سبيل الورع والانقطاع إلى الله تعالى إلى أن استشهد على يد الإفرنج لعنهم الله تعالى حين أخذهم القدس[٣].

٥- وقال أبو نصر النيسابوري الزاهد عن الجنيد بن دانيال الكرماني الصوفي بصور يقول: قبل استيلاء الإفرنج على بيت المقدس يا أبا نصر تستولي الروم على القدس وأكون أنا ممن يقتل بها؛ فتعجبت من قوله! وكان والله كما قال؛ لم يمضِ قليل حتى قتل فيمن قتل ببيت

١- تاريخ دمشق (٥٧٨٠) (٥٠/١٠-١٢).

٢- تاريخ دمشق (٧٤/٢١٥).

٣- الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل (١/٢٩٩)، و«دور العلماء المسلمين في مقاومة الغزو الإفرنجي» (ص٢١٢).

المقدس رحمه الله[١].

مدَارِسُ آيَاتٍ خلَتْ مِن تِلَاوةٍ ومَنَزلُ وحْيٍ مقفَّرِ الْعرَصَاتِ
على قبَّةِ الْمعرَاجِ والصَّخرَةِ الَّتي تُفَاخِر مَا في الأرضِ مِنْ ضجرَاتِ[٢]

٦- الفقيه المحدث أبو القاسم النَّسوي، قتل شهيدًا عندما تقدم الفرنج وأخذوا البيت المقدس[٣].

وكان رحمه الله فاضلًا صالحًا ثبتًا، وعاد إلى بيت المقدس فأقام بها يدرس الفقه على مذهب الشافعيّ ويروى الحديث إلى أن غلبت الإفرنج على بيت المقدس فحكى لي من رآه وهو يحمل عليهم حتى يخرجهم من المسجد وقتل منهم ثمَّ قتل شهيدًا في سنة تسعين وأربعمائة.

قال المؤتمن الساجي: كانت الفتاوى تجيئه من مصر ومن الساحل ودمشق، وقيل: إنَّه شرع في تأليف تاريخ لبيت المقدس، ولما دخلت الفرنج، وملكوا بيت المقدس في شعبان سنة اثنتين وتسعين وأربع مئة أسروا الرميلي، ونودي عليه في البلاد ليفك بألف دينارٍ لما عرفوا أنَّه من علماء المسلمين، فلم يفتكه أحد، فقتل صبرًا بظاهر أنطاكية، رحمه الله[٤].

١- معجم السفر لأبي طاهر السِّلفي (٣٥٩).
٢- مفرج الكروب (٤/٢٤٦)، و «السلوك لمعرفة دول الملوك» (١/٣٥٦).
٣- الأنساب للسمعاني (٦/١٧٣)، و«طبقات الشافعية الكبرى» (٥/٣٣٢-٣٣٣)، و«الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل» (١/٢٩٨-٢٩٩).
٤- طبقات علماء الحديث لابن عبد الهادي (٣/٤٢١).

(فرع) ويقول ابن الأثير مصورًا حال النصارى: ثمَّ إنَّ الرهبان والقسوس وخلقًا كثيرًا من مشهوريهم، وفرسانهم لبسوا السواد، وأظهروا الحزن على خروج البيت المقدس من أيديهم، وأخذهم البطرك الذي كان بالقدس، ودخل بهم بلاد الفرنج يطوفها بهم جميعًا، ويستنجدون أهلها، ويستجيرون بهم، ويحثونهم على الأخذ بثأر البيت المقدس.

وصوّروا المسيح عليه السلام وجعلوه مع صورة عربي يضربه، وقد جعلوا الدماء على صورة المسيح عليه السلام وقالوا لهم: هذا المسيح يضربه محمد نبي المسلمين وقد جرحه وقتله.

فعظم ذلك على الفرنج فحشروا وحشدوا حتى النّساء، فإنّهم كان معهم على عكا عدة من النساء يبارزن الأقران على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ومن لم يستطع الخروج استأجر من يخرج عوضه أو يعطيهم مالا على قدر حالهم. فاجتمع لهم من الرجال والأموال ما لا يتطرق إليه الإحصاء.

وحدثني بعض الأسرى منهم: أنَّه له والدة ليس لها ولد سواه، ولا يملكون من الدنيا غير بيت باعته وجهزته بثمنه، وسيرته لاستنقاذ بيت واحد فأُخِذ أسيرًا.

وكان عند الفرنج من الباعث الديني والنفساني ما هذا حده، فخرجوا

على الصعب والذلول، برًا وبحرًا، من كل فجٍّ عميقٍ، ولولا أنَّ الله تعالى لطف بالمسلمين، وأهلك ملك الألمان لما خرج على ما نذكره عند خروجه إلى الشام، وإلا كان يقال: (إنّ الشام ومصر كانتا للمسلمين)[١].

١- الكامل (١٠/٧٠).

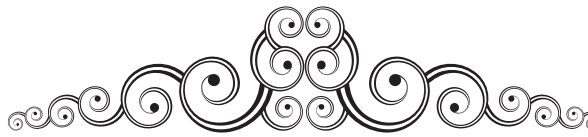

ذكر أول خطبة خطب بها في بيت المقدس بعد الفتح

فلمَّا حان وقت الخطبة نصّ على القاضي محيي الدين بن زكي الدين ﵀، وقدمه، وخطب خطبة بديعة بليغة، وكان أول ما قال حين تكلم: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٥] ثمَّ أورد تحميدات القرآن كلها، ثمَّ قال: الحمد لله معز الإسلام بنصره، ومذلِ الشركِ بقهره، ومصرفِ الأمورِ بأمرِه، ومديمِ النعمِ بشكره، ومستدرجِ الكافرينِ بمكرِه، الذي قدرَّ الأيامِ دولًا بعدلِه، وجعل العاقبة للمتقين بفضلِه، وأفاء على عباده من ظلِّهِ، وأظهر دينهُ على الدِّينِ كلِّهِ، القاهِرِ فوق عباده فلا يمانع، والظاهر على خليقته فلا ينازع، والآمر بما يشاء فلا يراجع، والحاكم بما يريد فلا يدافع، أحمده على إظفارِهِ وإظهارِهِ، وإعزازِهِ لأوليائِهِ ونصرِهِ لأنصارِهِ، وتطهيرِهِ بيته المقدَّسِ من أدناسِ الشِّركِ وأوضارِهِ، حَمْدَ من استشعرّ الحمدَ باطنّ سرّهِ وظاهِرَ جهارِهِ، وأشهد أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدهُ لا شريكَ له الأحد الصَّمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد شهادةَ من طهَّر بالتَّوحيدِ قلبه، وأرضى به ربَّهُ، وأشهد أنَّ محمدًا عبدُهُ ورسوله، رافع الشَّكّ وداحض

الشِّرك، وراحض الإفك، الذي أسري به من المسجد الحرام إلى هذا المسجد الأقصى، وعرج به منه إلى السماوات العلا، إلى سدرة المنتهى، ﴿عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى، إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى، مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ [النجم: ١٥] ، صلى الله عليه وعلى خليفته الصديقِ السابقِ إلى الإيمان، وعلى أمير المؤمنين عمر بن الخطَّاب أوَّل من رفع عن هذا البيت شعار الصُّلبان، وعلى أمير المؤمنين عثمان بن عفَّان ذي النُّورين جامع القرآن، وعلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب مزلزلِ الشِّركِ، ومُكسِّر الأوثانِ، وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان[١].

والخطبة طويلةٌ ذكرها أبو شامة في (الروضتين) وتتمة ما فيها، قول ابن الزكي رحمه الله: اللهم وأدم سلطان عبدك، الخاضع لهيبتك، الشَّاكرِ لنعمتك، المعترفِ بموهبتك، سيفكِ القاطع، وشهابك اللامع، والمحامي عن دينك المدَافع، والذابِّ عن حرمك الممانع، السَّيِّد الأجلِّ، الملك النَّاصر، جامع كلمة الإيمان، وقامع عبدة الصُّلبان، صلاح الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين، مطهر البيت المقدس، أبي المظفر يوسف بن أيوب، محيي دولة أمير المؤمنين.

اللهمَّ عُمَّ بدولته البسيطة، واجعل ملائكتك براياته محيطة، وأحسن عن

١- البداية والنهاية (١٦/٥٩٠)، وانظر: الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة» (ص٩٩).

الدين الحنيفيّ جزاءه، واشكر عن الملّة المحمدية عزمه ومضاءه.

اللهمَّ أبقِ للإسلام مهجته، ووقِّ للإيمان حوزته، وانشر في المشارق والمغارب دعوته.

اللهمَّ كما فتحت على يده البيت المقدَّس بعد أن ظنَّت الظُّنون، وابتُلي المؤمنون، فافتح على يده أداني الأرض وأقاصيها، وملِّكه صياصي الكفرة ونواصيها، فلا تلقاه منهم كتيبة إلا مزَّقها، ولا جماعةٍ إلا فرَّقها، ولا طائفة بعد طائفةٍ إلا ألحقها بمن سبقها.

اللهم اشكر عن محمد ﷺ سعيه، وأنفذ في المشارق والمغارب أمره ونهيه، اللهم وأصلح به أوساط البلاد وأطرافها، وأرجاء الممالك وأكنافها.

اللهمَّ ذلِّل به معاطس الكُفَّار، وأرغِمْ به أنوفَ الفجَّار، وانشر ذوائب ملكه على الأمصار، وابثُث سرايا جنودِهِ في سُبلِ الأقطار.

اللهمَّ ثبت الملك فيه وفي عقِبِه إلى يوم الدِّين، واحفظه في بنيه وبني أبيه الملوك الميامين، واشدد عضُده ببقائهم، واقض بإعزاز أوليائه وأوليائهم.

اللهمَّ كما أجريت على يده في الإسلام هذه الحسنة التي تبقى على الأيام، وتتخلد على مرِّ الشهور والأعوام، فارزقه الملك الأبدي الذي لا ينفد في دار المتقين، وأجب دعاءه في قوله: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ

﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِ﴾.

ثمَّ دعا بما جرت به العادة[١].

١- الروضتين (٣/٣٩٠-٣٩١).

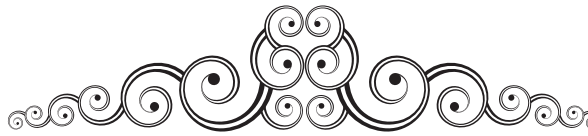

عدله

قيل السلاطين: «سلطان عدل وإمامة، وسلطان جور وسياسة، وسلطان تخليط وإضاعة»[١]. وكان السلطان المظفر رحمه الله سلطان عدل وإمامة، يشهد له البر والفاجر، والمسلم والكافر، وكان يجلس في كلّ يوم اثنين وخميس في مجلس عام يحضره القضاة والفقهاء[٢]، ويصل إليه الكبير والصغير والشيخ والعجوز، وما استغاث إليه أحدٌ إلّا أجابه وكشف ظلامته؛ واستغاث إليه ابن زهير الدّمشقيَّ على تقي الدين عمر ابن أخيه، وقال: «ما يحضر معي مجلس الشرع»، فأمر تقي الدين بالحضور معه.

وادّعى رجل على السلطان صلاح الدين بأنّ سنقر الخلاطيَّ مملوكه ومات على ملكه.

قال ابن شدّاد: فأخبرته فأحضر الرجل، وقد خرج عن طرّاحته وساواه في الجلوس، فادّعى الرجل؛ فرفع السلطان رأسه إلى جماعة الأمراء والشيوخ

١- السياسة للمرادي (ص٦٧).

٢- وما أشبهه بالملك العادل نور الدين رحمه الله، فإنَّه كان يجلس في الأسبوع يومين وعنده القاضي والفقهاء كما في «الروضتين» (١/٤١-٤٢)، و«مفرج الكروب في أخبار بني أيوب» (١/٢٦٨-٢٦٩).

الأخيار، وهم وقوف على رأسه، فقال: أتعرفون سنقر الخلاطيَّ؟

قالوا: نشهد أنّه مملوكك، وأنَّه مات على ملكك، ولم يكن للرجل المدّعي بيّنة، فأسقط في يده.

فقلت: يا مولانا، رجل غريب، وقد جاء من خلاط في طمع، ونفدت نفقته، وما يحسن أن يرجع خائبًا؛ فقال: يا قاضي، هذا إنّما يكون على غير هذا الوجه، ووهب له نفقة وخلعة وبغلة، وأحسن إليه[١].

إنَّ العدل من أسباب دوام الملك بإذن الله، كما أنَّ الظلم بخلافه، كما قال ابن خلدون: «إنَّ الظّلمَ مؤذنٌ بخرابِ العمران»[٢].

وكان السلطان الفاتح المظفر يفتح الباب للمتحاكمين حتى يصلَ إليه كلُّ أحدٍ من كبير وصغير، وعجوز هَرِمة وشيخٍ كبير، وكان يفعل ذلك

١- النجوم الزاهرة (٦/١٠).

٢- مقدمة ابن خلدون (ص٢٩٥) ط: مؤسسة الرسالة. وفي سراج الملوك (ص٦٦-٦٧)، وحسن السلوك (ص٤٥-٤٦). قَالَ وهب بن مُنبّه: «إِذا عمل الْوَالِي بالجور أَو هم بِهِ، أَدخل الله النَّقص فِي أهل مَملَكَته من الزَّرع والضرع، وكل شَيء، وَكَذَلِكَ إِذا هم بِالْعَدلِ أَو عمل بِهِ أَدخل الله البركَة فِي أهل مَملَكَته».

وقَالَ ابن عَبَّاس ﷺ وعن أبيه: «إِنَّ ملكًا من الملوك خرج يسير فِي مَملَكَته مستخفيًا فَنزل على رجل لَهُ بقرة فراحت فحلبت لَهُ وزن ثَلَاثِينَ بقرة؛ فَعجب الملك من ذَلِك، وَحدث نَفسه بأخذها، فَلَمَّا راحت عَلَيهِ من الْغَد حلبت على النّصف، فَقَالَ الملك: مَا بَال حلابها انتقصَ؟ أرعيت فِي غير مرعاها بالأَمس؟ فَقَالَ: لَا؛ وَلَكِن أَظن أَنَّ ملكنا هم بأخذها فنقص لَبنهَا، فَإِن الملك إِذا ظلم أَو هم بظُلم ذهبت البركَة. فعاهد الله سُبحانَه فِي نَفسه أَلا يَأْخُذهَا، وراحت من الغَد فحلبت حلاب ثلاثِينَ بقرة، فَتَابَ الملك وَعَاهد ربه ليعدلنَّ مَا بَقِي».

سفرًا وحضرًا على أنَّه كان في جميع زمانه قابلًا لما يُعرض عليه من القصِص، كاشفًا لما يُنهى إليه من المظالم، وكان يجمع القصص في كلِّ يومٍ، ثمَّ يجلس مع الكاتب ساعة إمَّا في الليلِ أو في النَّهارِ، ويوقع على كلِّ قصةٍ بما يطلق الله على قلبه[١].

وحكى ابن عطية في «تفسيره» حكايَة معناها: «أنَّه شكي على بعض العمال عند خليفة زمانه فكشف عن سيرته فلم يوجد عليه شيء من الجور.

فقال الخليفة: لا أعزله عنكم وهو عادل.

فقال له بعض الناس: صدق أمير المؤمنين هو عادل؛ ولكن لم يحسن، وقد أمر الله بالعدل والإحسان فعزله عنهم»[٢]. وقد كان السلطان عادلاً محسنًا رحمه الله.

وكان للمسلمين لصوص يدخلون إلى خيام الفرنج فيسرقون، فاتفق أن بعضهم أخذ صبيًّا رضيعًا من مهده ابن ثلاثة أشهر، فوجدت -حزنت- عليه أمه وجدًا شديدًا، واشتكت إلى ملوكهم؛ فقالوا لها: إن سلطان المسلمين رحيم القلب، فاذهبي إليه، فجاءت إلى السلطان صلاح الدين فبكت، وشكت أمر ولدها، فرق لها رقة شديدة، ودمعت عيناه، فأمر

١- الروضتين (٤/٣٨٦).
٢- تفسيره (٨/٤٩٧)، وعنه في «حسن السلوك» (ص٦٩).

بإحضار ولدها، فإذا هو بيع في السوق، فرسم بدفع ثمنه إلى المشتري، ولم يزل واقفًا حتى جِيء بالغلام، فدفعه إلى أمه، وحملها على فرس إلى قومها مكرمة[١].

وقال ابن جبير: وعند ذكر صلاح الدين بالدعاء تخفق الألسنة بالتأمين عليه من كل مكان.

وإِذَا أحبَّ اللهُ يوْمًا عبْدَهُ ... أَلْقَى عَليه محبَّةً للنَّاسِ

وحق ذلك عليهم؛ لما يبذله من جميل الاعتناء بهم، وحسن النظر لهم، ولما رفعه من وظائف المكوس عنهم[٢].

ومن عدله وتواضعه: أنّه قسم السور بين أولاده وأمرائه وهو يعمل فيه بنفسه ويحمل الحجر بين القربوس وبينه، والناس يقتدون به وبالعلماء، والفقراء يعملون بأنفسهم، والفرنج -لعنهم الله- حول البلد من ناحية عسقلان وما والاها لا يتجاسرون أن يتقربوا من الحرس[٣].

فرضي الله عنه وغفر له، وكثر في الأمة من يسير بسيرته، ويحاكيه بأفعاله وأخلاقه، وفتوحاته واخلاصه.

١- حسن المحاضرة (٢/٤٨).
٢- رحلة ابن جبير (ص٦٦).
٣- البداية والنهاية (أحداث ٥٨٨هـ) (١٦/٦٣٩).

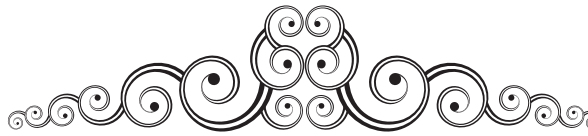

الحركة العلمية في زمان الدولة الأيوبية ودورها في فتح المسجد الأقصى

إنَّ الحركة العلميَّة التي كانت موجودة في بلاد المسلمين لها أثر عظيمٌ في تحريض المجاهدين، واستنفار العامة للغزو والثبات في وجوه الأعداء، مع ما في ذلك من رفع المعنويات لدى القادة والمقاتلين، إنَّ جيل صلاح الدين قادة وجنودًا، جماعات وأفرادًا، فهموا معنى قيمة العلم وممن يؤخذ، وأعطوا الفتوى لأصحابها، وتسلم العلماء الربانيون سياسة الأمة فقطعوا بها المراحل، وتدافع الجميع نحو مرضاة الله؛ وزراء وقواد وسلاطين وعوام، فأصبح شغفهم بالعلم والعلماء واضحًا معلومًا، وحرصهم على الجهاد وتفجير طاقاته شيئًا ملموسًا من سيرتهم[١].

ومن صور تلك الحركة العلمية: وجود شعراء ينشدون الأشعار الحماسية جزلة الألفاظ، عذبة المعاني، بعيدة عن الخنا والمجون[٢].

كما يقول الأستاذ إحسان عباس عن «تاريخ الأدب الأندلسي»: «كان الشاعر رفيق الأمير أو الخليفة في الجهاد، وبلغ الأمر بالمنذر أنَّه كان

١- صفحات من التاريخ الإسلامي (ص١٥٣).
٢- انظر ما قيل من الشعر مثلًا في فتح حلب من كتاب الروضتين (٣/١٦٢-١٦٥).

يستمع إلى الشعراء ينشدونه غازيًا وراجعًا. وإذا تصورنا كثرة الغزوات في مدى هذه الفترة لاح لنا مبلغ الشعر الذي مزج بين المدح ووصف المعارك، والإشادة بالانتصارات وتبرير الانكسارات، والتمثيل على هذا الفن هو نوع من الاستئناس ببعض النماذج الأندلسية»[١]، ثمَّ أخذ يذكر من هذه الأشعار ممَّا لا يسع المقام ذكرها هنا.

إنَّ وجود العلماءِ الربانيَّين وأهلِ الصَّلاح والدِّين في الدولة، وحضورهم النِّزال في ساحات القتالِ ضد الأعداءِ خيرٌ عظيم، وبركةٌ كبيرة، ورفعٌ للهمة، وقوة لعزيمة المقاتلين، وسبب من أسباب النصر –بإذن الله–.

وقد قيل: «بقاء الدنيا بسيوف الأمراء، ولسان العلماء»[٢].

قال ابن خلدون: «اعلم أنّ السّيف والقلم كلاهما آلةٌ لصاحبِ الدَّولةِ يستعين بها على أمره. إلّا أنّ الحاجة في أوَّل الدَّولةِ إلى السّيف –ما دام أهلها في تمهيد أمرهم– أشدّ من الحاجة إلى القلمِ؛ لأنَّ القلم في تلك الحال خادم فقط منفّذٌ للحكم السّلطانيّ، والسّيفُ شريكٌ في المعونة. وكذلك في آخر الدّولةِ، حيث تضعفُ عصبيَّتُهما كما ذكرناه، ويقلُّ أهلُها بما ينالهُم من الهرم الذَّي قدَّمناه، فتحتاج الدّولةُ إلى الاستظهارِ بأرباب السّيوفِ، وتقوى الحاجةُ إليهم في حماية الدّولة، والمدافعة عنها،

١- تاريخ الأدب الأندلسي (ص٨٦).

٢- نشر طيّ التعريف في فضل حملة العلم الشريف والرد على ماقتهم السخيف (ص١٧).

كما كان الشّأن أوَّلَ الأمر في تمهيدها، فيكون للسيف مزيّةٌ على القلم في الحالتين، ويكونُ أربابُ السّيف حينئذ أوسع جاهًا، وأكثر نعمَة، وأسنى إقطاعًا. وأمّا في وسط الدّولة فيستغني صاحبها بعض الشّيء عن السّيف؛ لأنَّه قد تمهدَّ أمرُه، ولم يبقَ همُّهُ إلَّا في تحصيل ثمرات الملك من الجبايةِ والضبط، ومباهاة الدّولِ وتنفيذ الأحكام، والقلم هو المعين له في ذلك؛ فتعظمُ الحاجةُ إلى تصريفه، وتكون السّيوفُ مهملة في مضاجع أغمادها، إلّا إذا نابت نائبةً، أو دعيت إلى سدّ فرجة، وممَّا سوى ذلك فلا حاجة إليها، فيكونُ أرباب الأقلام في هذه الحاجة أوسع جاهًا وأعلى رتبةً، وأعظم نعمةً وثروةً، وأقربُ من السّلطان مجلسًا، وأكثر إليه تردّدا وفي خلواته نجيًّا؛ لأنَّه حينئِذ آلته الّتي بها يستظهر على تحصيل ثمرات ملكه، والنّظر إلى أعطافه، وتثقيف أطرافه، والمباهاة بأحواله، ويكون الوزراء حينئِذ وأهلُ السّيوف مستغنىً عنهم، مبعدين عن باطن السّلطان حذرين على أنفسهم من بوادره، وفي معنى ذلك ما كتب به أبو مسلم للمنصور حين أمره بالقدوم: «أمَّا بعد: فإنَّه ممّا حفظناه من وصايا الفرس، أخوف ما يكون الوزراء إذا سكنت الدّهماءُ» سنّة الله في عباده، والله أعلم»[١].

١- المقدمة (ص٢٦٤) ط: الرسالة ناشرون.

قلت: فكيف إذا كان السيف والقلم سواءً، وهذا ما كان موجودًا في سير علماء الأمة الذين ذكرنا بعضهم في كتابنا، فلله درهم.

ولما رأى أصحاب نور الدين الزنكي كثرة إنفاقه على العلماءِ، قال له بعض بطانة السوء: إنَّ لك في بلادك إدرارات وصلات ووقوفًا كثيرة على الفقهاء، والفقراء، والقراء، والصوفية وغيرهم، فلو استعنت بها في هذا الوقت لكان أصلح فغضب من ذلك، وقال: «والله إنَّني لا أرجو النَّصر إلا بدعاء أولئك، فإنَّما ترزقون وتنصرون بضعفائكم، كيف أقطع صلات قوم يقاتلون عنِّي وأنا نائم على فراشي بسهام لا تخطئ، وهؤلاء القوم لهم نصيب في بيت المال، كيف يحل لي أن أعطيه غيرهم!»[1].

وقال فخر الدين قرا أرسلان عن نور الدين في سيره لقتال الروم بحارم: «فإنَّه كاتب زهادها وعبادها والمنقطعين عن الدنيا يذكر لهم ما لقي المسلمون من الفرنج، وما نالهم من القتل والأسر والنهب، ويستمد منهم الدعاء ويطلب منهم أن يحثوا المسلمين على الغزاة؛ فقد قعد كل واحد

١- زبدة الحلب من تاريخ حلب لابن أبي جرادة (٢/٤٩١)، وانظر: «وفيات الأعيان» (٥/١٨٨).

قلت: وهذا شبيه بسيرة الوزير العالم العادل نظام الملك السلجوقي، كما قال السيوطي في «حسن المحاضرة» (٢/١٠٤) عن نظام الملك الطوسي السلجوقي: «وقد أحاطت العلوم بما أجاب به الوزير نظام الملك حين أنكر عليه السلطان صرفه الأموال الكثيرة في جهة طلب العلم، فقال: أقمت لك جندًا لا ترد سهامهم بالأسحار؛ فاستصوب فعله، وساعده عليه».

من أولئك ومعه أتباعه وأصحابه، وهم يقرؤون كتب نور الدين ويبكون ويلعنونني ويدعون علي فلا بد من إجابة دعوته»[١].

وكان القائد الفاتح، والفقيه الفالح صلاحُ الدِّين الأيوبي، يقول في ملأ من النَّاس: «لا تظنُوا أنِّي ملكتُ البلادَ بسيوفكم؛ بل بقلم الفاضل!!»[٢].

وكان القاضي كما قال الزمخشري: «بين فكَّيه حسام مهنَّد، يقطُرُ منه كلامٌ مقنَّد»[٣].

وصدق ابن الموصلي إذ قال: «فيتخذ -الحاكم- العلماء شعارًا، والصالحين دثارًا؛ فتدور المملكة على نصائح العلماء، ودعوات الصلحاء، فيا سعد ملك يدور بين هاتين الخصلتين، لقد قام عوده، وأورق عموده»[٤].

ونجد من المشاركات الفعالة من قبل العلماء، أنَّ الفقيه والقاضي عماد الأصفهاني، وهو يمدح نور الدين بعد فتح منبج، يلفت نظره بعد ذلك إلى القدس بقصيدةٍ من أبياتها:

١- الروضتين (١/٤١٧).

٢- مرآة الزمان في تواريخ الأعيان لسبط ابن الجوزي (٢٣/٨٣).

٣- ذيل الكلم النوابغ (ص٣٨٧)، قوله: (الحسام): السيف القاطع، وقوله: (المهند): المطبوع من حديد الهند، واستعاره هنا للسان.

٤- حسن السلوك الحافظ دولة الملوك (ص٧٠-٧١).

بشرَى الممالك فتح قلعة منبج فلْيَهْنِ هَذَا النَّصْر كل متوج
أبشِر فبيت الْقُدس يَتْلُو منبجًا ولَمَنبج لسواه كالأنموذج
مَا أعجزتك الشهب فِي أبراجها طلبا فَكيف خوارج فِي أبرُج
فانهد إِلَى الْبَيْت الْمُقَدّس غازيًا وعَلى طرابلسٍ ونابلسٍ عج
قد سرت فِي الْإِسْلَام أحسن سيرة مأثورة وسلكت أوضح مَنْهَج
وَجَمِيع مَا استقريت من سنَن الْهدى جددت مِنْهُ كل رسم مَنْهَج[1]

ويقول الحافظ ابن كثير: وكان أسد الدين شيركوه وصلاح الدين يوسف بمصر فبشره فيها بولاية صلاح الدين الديار المصريَّة حيث يقول:

وَيَسْتَقِرُّ بِمِصْرَ يُوسُفٌ وَبِهِ تقَرُّ بَعْدَ التَّنَائِي عَيْنُ يَعْقُوبِ
وَيَلْتَقِي يُوسُفٌ فِيهَا بِإِخْوَتِهِ وَاللَّهُ يَجْمَعُهُمْ مِنْ غَيْرِ تَثْرِيبِ[2]

وعلى غرار الأبياتِ السابقة التي قيلت في رفع همَّة القائدِ نور الدين، نجدُ مثلها في حثِّ ومدحِ القائد صلاح الدين، كما قال محي الدين ابن الزكي:

وفتحكم حَلبًا بِالسَّيْفِ فِي صفر مُبشر بفتوح الْقُدس فِي رَجَب[3]

١- الروضتين في أخبار الدولتين (٣٣/٢).
٢- البداية والنهاية (٤٢٣/١٦).
٣- البرق الشامي لعماد الدين الأصفهاني (١١٩/٥).

إنَّنا إذا تأملنا في سيرة القائد الفاتح المظفر صلاح الدين الأيوبي، نجد أنَّ حوله عصبة مباركة من أهل العلم، ممَّا يعني أنَّ دور العلماء لا يقتصر فقط على نشر العلم، والخطب، والقضاء فحسب؛ بل وعلى الجهاد والرباط، وطعان الأعداء، ومن هؤلاء على سبيل الذكر لا الحصر:

١- **القاضي الفاضل**[١]: العلامة البليغ، القاضي الفاضل، محيي الدين، يمين المملكة، سيد الفصحاء، أبو علي عبد الرحيم بن علي بن الحسن بن الحسن بن أحمد بن المفرج اللخمي، الشامي، البيساني الأصل، العسقلاني المولد، المصري الدار[٢]. قال ابن خلكان: «وزر للسلطان صلاح الدين بن أيوب».

وسلمت للقاضي الفاضل زمن صلاح الدين زعامات أربع، لا نكادُ نعرف أنها سلمت كلها لرجل مثله في عصرٍ من عصور التاريخ المصري؛ وهي: الزعامةُ السياسية، والزعامة الاجتماعية، والزعامةُ العلميَّة، والزعامةُ

١- يقول الحافظ ابن كثير الزرعي ثمَّ الدمشقي في «البداية والنهاية» (١٦/٦٩٨-٦٩٩): «لما استقر ملك صلاح الدين في الديار المصرية جعله كاتبه وصاحبه ووزيره وجليسه وأنيسه، وكان أعز عليه من أهله وأولاده، وأكرم عليه من طريفه وتلاده، وتساعدا حتى فتح الأقاليم والبلدان والحصون والمعاقل، هذا بحسامه وسنانه، وهذا بقلمه ولسانه وبيانه».
وقال: «له مدرسة بديار مصر على الشافعية والمالكية، وأوقاف على تخليص الأسارى من أيدي النصارى، وقد اقتنى من الكتب نحوا من مائة ألف كتاب، وهذا شيء لم يفرح به أحد من الوزراء ولا العلماء ولا الملوك ولا الكتاب».

٢- سمع في الكهولة من: أبي طاهر السلفي، وأبي محمد العثماني، وأبي القاسم بن عساكر، وأبي الطاهر بن عوف، وعثمان بن فرج العبدري.

الأدبية.

أمَّا **الزعامة السياسية**: فيكفي في تصويرها قول صلاح الدين: «ما ملكتُ البلادَ بسيوفكم ولا رماحكم؛ ولكن بقلم الفاضل».

وأمَّا زعامة الفاضل الاجتماعية: فيكفي في تصويرها أنَّ شعراء عصره مدحوهُ جميعًا دون استثناء، وكان قصار جُهِد أحدهم في حياته أن ينال شرف مدحه، ومدح السلطان.

وأمَّا زعامة الفاضل العلمية: فتظهر من أنَّه كان القائم على تنفيذِ هذه الخطة الذهبية، وهي الخطة التي جاء بها صلاح الدين إلى الديار المصرية، وتتلخص في إنشاء المدارس العلمية التي تحارب بها الدولة الأيوبية عقائد الدولة الفاطمية، وقد نجح السلطان ووزيره في هذه الخطة التي رسماها نجاحًا لا يفوق مثله، ثمَّ لم يكتفِ القاضي بذلك، حتى كان يشرف بنفسه على سير الحركة العلمية كذلك، فكان يشجع العلماء على التأليف والإنتاج.

أمَّا عظمته الأدبية فهي بيت القصيد، والغريب أنَّ النَّاس نسُوا أو كادوا ينْسُون للفاضل الزعامة السياسية، والزعامة الاجتماعية[١].

٢- **القاضي العماد الأصفهاني**: أبو عبد الله محمد بن محمد بن حامد

١- صلاح الدين الأيوبي قاهر العدوان الصليبي (ص٢٢٣-٢٢٤).

بن هبة الله الأصبهاني صاحب «الفتح القدسي»، و«البرق الشامي»، و«الخريدة» وغير ذلك من المصَّنفاتِ المفيدة[١].

٣- **القاضي ابن شداد:** يوسف بن رافع بن تميم بن عتبة الأسدي الموصلي، أبو المحاسن، بهاء الدين ابن شدد[٢]، وكان يقول عن فتح عكا: «وكنت ممن دخل ورَقَي على السور، ورمى العدو بما يسر الله تعالى من فوق السور، ودام القتال بين الفئتين متصلًا الليل والنهار»[٣].

٤- **الكمال الشهرزوري:** وكان له مآثر طيبة في الجهاد وصد الأعداء، وله فضل كبير في استنفار جيش العراق لمساندة نور الدين في حصار حلب، كما وصفه ابن الأثير بأنه «خير من عشرة آلاف فارس».

١- نعته الحافظ الذهبي في «السير» (٢١/٣٤٥)، بقوله: «القاضي، الإمام، العلامة، المفتي، المنشئ، البليغ، الوزير، عماد الدين».

٢- نعته الحافظ الذهبي في «السير» (٢٢/٣٨٣-٣٨٦)، بقوله: الشيخ، الإمام، العلامة، قاضي القضاة، بقية الأعلام، بهاء الدين، أبو العز، وأبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم بن عتبة بن محمد بن عتاب الأسدي، الحلبي الأصل والدار، الموصلي المولد والمنشأ، الفقيه، الشافعي، المقرئ، المشهور: بابن شداد؛ وهو جده لأمه. حدث بمصر، ودمشق، وحلب. ولم يرزق ابنًا، ولا كان له أقارب، واتفق أنَّ الملك الظاهر أقطعه إقطاعًا يحصل له منه جملة كثيرة، فتصمد له مال كثير، فعمر منه مدرسة سنة إحدى وست مائة، ودار حديث وتربة. قصده الطلبة، واشتغلوا عليه للعلم وللدنيا، وصار المشار إليه في تدبير الدولة بحلب، إلى أن استولت عليه البرودات والضعف، فكان يتمثل:

مَنْ يَتَمَنَّ العُمْرَ، فَلْيَدَّرِعْ صَبْرًا عَلَى فَقْدِ أَحْبَابِهِ
وَمَنْ يُعَمَّرْ يَلْقَ فِي نَفْسِهِ مَا قَدْ تَمَنَّاهُ لأَعْدَائِهِ

٣- النوادر السلطانية (ص١٦٨).

وقال: «قيل للشهيد -نور الدين-إنَّ هذا كمال الدين يحصل له كل سنة منك ما يزيد على عشرة آلاف دينار أميرية، وغيره يقنع منك بخمسمائة دينار، فقال لهم: بهذا العقل والرأي تدبرون دولتي، إنَّ كمال الدين يقل له هذا القدر وغيره يكثر له خمسمائة دينار، فإنَّ شغلًا واحدًا يقوم فيه كمال الدين خير من مائة ألف دينار، وكان كما قال»[١].

٥- **الفقيه عيسى الهكّاري**: وقد كان صلاح الدين يميل إليه ويستشيره، وكأنّ الله قد أقامه لقضاء حوائج الناس، والتفريج عن المكروبين مع الورع والعفّة والدين[٢].

٦- **الفقيه الواعظ المفسر**: علي بن إبراهيم بن نجا بن غنائم الأنصاري الدمشقي: وكان صلاح الدين يسميه بـ «عمرو بن العاص»، ويعمل برأيه[٣].

٧- **قطب الدين النيسابوري**: وكان إمامًا فاضلًا في العلوم الدينية قدم

١- التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية (ص٦٢-٦٣).

٢- النجوم الزاهرة (٦/١١٠).

٣- ذيل طبقات الحنابلة (٢/٥٣١) وقال أَبُو شامة: «كان صلاح الدين يكاتبه، ويحضر مجلسه هو وأولاده: العزيز، وغيره. وكان له جاه عظيم، وحرمة زائدة».
وقال ناصح الدين: «كان أهل السنة بمصر لا يخرجون عما يراه لهم زين الدين - يعني ابن نجية - وكثير من أرباب الدولة».
وقال له الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين: «إذا رأيت مصلحة في شيء فاكتب إليَّ بها، فأنا ما أعمل إلا برأيك»..

إلى دمشق وصنَّف عقيدة للسلطان صلاح الدين، وكان السلطان يقرئها أولاده الصغار، كما هو موجود في ثنايا الكتاب.

٨- **القاضي محيي الدين بن الزكي**: وهو الذي خطب خطبة حماسية عظيمة في فتح بيت المقدس، وهي بتكليف من السلطان صلاح الدين الأيوبي[١].

٩- **سبط ابن الجوزي**: وقد كان شيخه موفق الدين عبد الله بن أحمد ابن قدامة المقدسي يحضر مجالسه دائمًا، ويفرح به، ويقول له: «قد أحيا اللهُ بك السُّنَّة، وقَمعَ البدعة، وهذه البلاد فتوحُكَ كما فتحَ القدسَ

١- ومن مضامين خطبته ما جاء في «الروضتين» (٣/٣٨٨-٣٨٩): «احمدوا الله الذي أمضى عزائمكم لما نكلت عنه بنو إسرائيل، وقد فضلهم على العالمين، ووفقكم لما خذل فيه من كان قبلكم من الأمم الماضين، وجمع لأجله كلمتكم وكانت شتى، وأغناكم بما أمضته كان وقد عن سوف وحتى فليهنكم أن الله قد ذكركم به فيمن عنده، وجعلكم بعد أن كنتم جنودًا لأهويتكم جنده، وشكركم الملائكة المنزلون على ما أهديتم إلى هذا البيت من طيب التوحيد، ونشر التقديس والتحميد، وما أمطتم عن طرقهم فيه من أذى الشرك والتثليث، والاعتقاد الفاجر الخبيث؛ فالآن يستغفر لكم أملاك السموات، وتصلي عليكم الصلوات المباركات. فاحفظوا رحمكم الله هذه الموهبة فيكم، واحرسوا هذه النعمة عندكم بتقوى الله التي من تمسك بها سلم، ومن اعتصم بعروتها نجا وعصم، واحذروا من اتباع الهوى، وموافقة الردى، ورجوع القهقرى والنكول عن العدى، وخذوا في انتهاز الفرصة وإزالة ما بقي من الغصة، وجاهدوا في الله حق جهاده، وبيعوا عباد الله أنفسكم في رضاه؛ إذ جعلكم من عباده، وإيَّاكم أن يستزلكم الشيطان، وأن يتداخلكم الطغيان فيخيل لكم أن هذا النصر بسيوفكم الحداد، وبخيولكم الجياد، وبجلادكم في مواطن الجلاد، لا والله! الله ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ١٠﴾»..

يوسفُ سَمِيُّك»[١].

وكان العماد إبراهيم بن عبد الواحد المقدسي يحضر مجالسه في جامع دمشق وقاسيون ولا ينقطع إلا من عذر، ويقول له بعد مجلسه: «صلاحُ الدين يوسفُ فتحَ الساحل وأظهرَ الإسلامَ، وأنتَ يوسف أحييت السنَّةَ بالشام»[٢].

وكان الملكُ الأشرفُ موسى حضر مجلسًا عقده السِّبطُ ليلة عرفةَ في جامع التوبة -وذلك بعد عودته من رحلةٍ إلى القدس ونابلس- فتأثَّر الملك الأشرف كثيرًا وبكى، وأعتق مماليكه وجواريه، وقال للسِّبط: «واللهِ إنَّ دمشق تَغارُ عليكَ أن تكونَ في غيرها»[٣].

ولعلنا نقف مع هذا الموقف العظيم، وكيف الناس كانوا يبذلون ما عندهم لإعلاء كلمة الله، ودحر العدو، وأنَّ الموقد لهذه التجمعات والموجه لها نحو الصواب وبعيدًا عن التهور والعجلة، هم العلماء.

يقول سبط ابن الجوزي: «خرجت من دمشق بنية الغزاة إلى نابلس، وكان الملك المعظم بها، فجلست بجامع دمشق في ربيع الأول، فكان النَّاسُ من مشهد زين العابدين إلى باب الناطفيين، وكان القيام في الصحن أكثر،

١- مرآة الزمان (٢٢/ ٢٦٦).
٢- مرآة الزمان (٢٢/٢٢١)، وانظر مقدمة محقق الكتاب نفسه (١/٢٠-٢١).
٣- مرآة الزمان (٢٢/ ٣٥٤).

وحزروا بثلاثين ألفًا، وكان يومًا لم يرَ بدمشقَ ولا بغيرها مثله. وكان قد اجتمع عندي شعور كثيرة من التائبين، وكنت وقفت على حكاية أبي قدامة الشامي مع تلك المرأة التي قطعت شعرها، وقالت: اجعله قيدًا لفرسك في سبيل الله، فعملت من التي اجتمعت عندي شكلًا لخيل المجاهدين وكرفسارات، فأمرت بإحضارها على الأعناق، فكانت ثلاثمائة شكال، فلمَّا رآها النَّاسُ ضجوا ضجةً عظيمةً وقطعوا مثلها، وقامت القيامة، وكان المعتمد والي دمشق حاضرًا، وقام فجمع الأعيان. فلمَّا نزلت من المنبرِ قام يطرق لي، ومشى بين يدي إلى باب الناطفيين، فتقدم إلى فرسي فأمسك بركابي، وخرجنا من باب الفرج إلى المصلى، وجميع من كان بالجامع بين يدي، وسرنا إلى الكسوة ومعنا خلق مثل التراب، فكان من قرية زملكا فقط نحو ثلاثمائة رجلٍ بالعدد والسلاح، ومن غيرها خلق خرجوا احتسابًا. وجئنا إلى عقبة فيق والوقت مخوف من الفرنج، فأتينا نابلس، وخرج المعظم فالتقانا وفرح بنا، وجلست بجامع نابلس، وأحضرت الشعور، فأخذها المعظم، وجعلها على وجهه وبكى، ولم أكن اجتمعت به قبل ذلك اليوم، فخدمنا وخرجنا نحو بلاد الفرنج، فأخربنا وهدمنا وأسرنا جماعة، وقتلنا جماعة، وعدنا سالمين مع المعظم إلى الطور، فشرع المعظم في عمارة حصن عليه، وبناه إلى آخر سنة ثمان، فتكامل

سوره، وبنى فيه مدة بعد ذلك، ولا نحصي ما غرم عليه»[١].

وهؤلاء -السالفِ ذكرهم من العلماءِ- كان لهم جهاد بالنفس والمال، وجهاد بالبنان والسنان، ومواقف في الإعداد والرباط، ومشاركة بالرأي والمكيدة، وحث المجاهدينَ على الثبات، ودعوةِ الناس للنفير ومجابهة العدو، مع ما كانوا يكتبونه في سيرة هذا القائد -صلاح الدين-، وعون له فيما يحتاجه منهم، ولعل كتاب (عيون الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية) يتناول كثيرًا ممَّا لا يسع ذكره هنا، ومن هذه المواقف قول القاضي ابن شداد: «وأنا ممَّن جمع له فيه كتابًا؛ جمعت فيه آدابه، وكل آية وردت فيه، وكل حديث روي في فضله، وشرحت غريبها. وكان كثيرًا ما يطالعه؛ حتى أخذه منه ولده الملك الأفضل عز نصره»[٢].

إنَّ فتح القدس لم يكن مجرد صدفة، ولا يتحقق بالرغبة والشهوة فحسب؛ بل إنَّه يحتاج لإعداد شامل، ومشاركة فعَّالة من جميع الشرائح، وتبادل الهم والهمة جيلًا بعد جيل، والاستمرار وعدم اليأس[٣].

١- قال ابن النحاس (ص١٤٥وما بعد): «حكاية أبي قدامة مع المرأة التي ضفرت شعرها شكالا للفرس في سبيل الله مشهورة، حكاها جماعة منهم أحمد بن الجوزي»، وكذا ابن الجوزي في «صفة الصفوة» (١٩٨/٤)، ونقل الذهبي عن سبط ابن الجوزي في «تاريخ الإسلام» بدون التفاصيل المذكورة (٢١/١٣)، والقصة لم تثبت بسند، وراويها مجهول، وفيها عبرة وعظة، وحماسة وشحذ للهمم، والله أعلم.

٢- النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (ص٥٤).

٣- لقد حرص كثير من العلماء والزهادِ على الإقامة ببيت المقدس ولو فترة قصيرة، منهم:

إنَّ همَّ فتح القدس قد لازم السلطان صلاح الدين الأيوبي من بداية طفولته إلى لحظة فتحه؛ ولم يكن هذا إلا همًّا توارثه عن القيادة العلية في الدولة المتمثلة بنور الدين ومن قبله والده، وكذا التربية المنزلية المتمثلة بوالده وعمه شيركوه، وكذا الحالة الاجتماعية، والدروس المسجدية، وأحوال الناس كافة، مهدت -بفضل اللهِ- لهذا الفتح العظيم، مع الإعداد بجميع أنواعه، ومن ذلك: المدارس العلمية التي سبقت عهده: كمدرسة (الشيخ عبد القادر الكيلاني، والشيخ عدي بن مسافر، والمدرسة البيانية لصاحبها «أبو البيان نبأ بن محمد بن محفوظ»[١]، ومدرسة الشيخ رسلان

(عمر بن عبد العزيز، ومالك بن دينار، ورابعة العدوية، وطافية (من العابدات)، وسليمان بن طرخان الذي كان يقول: إذا دخلت البيت المقدس كأنَّ نفسي لا تدخل معي حتى أخرج منه. ومقاتل بن سليمان، وعبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي، وسفيان الثوري وقد دخل قبة الصخرة وختم فيها القرآن، وإبراهيم بن أدهم، والليث بن سعد فقيه مصر، ومحمد بن إدريس الشافعي، وبشر الحافي، وهو الذي أجاب عن سؤال: لِمَ يفرح الصالحون في بيت المقدس؟ بقوله: «لأنَّها تذهب الهم، ولا تشغل النفس بها»، وقال أيضًا: «ما بقي عندي من لذات الدنيا إلا أن استلقي على جنبي بجامع بيت المقدس».

وذو النون المصري (العابد الزاهد)، وصالح بن يوسف «حج تسعين حجة راجلًا يحرم من صخرة بيت المقدس».

وشيخ الإسلام الأنصاري الذي سكن بيت المقدس ونشر المذهب الحنبلي بها، والشيخ نصر بن إبراهيم المقدسي شيخ المذهب الشافعي بالقدس، وأبو حامد الغزالي وقد صنف في القدس كتابه (إحياء العلوم)، وعيسى الهكاري، والقاضي الفاضل، وابن القيرواني (محمد بن الطاهر)، وأبو بكر المعري المعافري الأندلسي (الحافظ المشهور)، وعبد الكريم المعافى الشافعي صاحب كتاب (الذيل لتاريخ مدينة السلام) عدَّة مجلدات، وعدد كبير من العلماء والرحالة الذين زاروا القدس وكتبوا عنها. انظر: «رجال حول القدس» (ص١٢٢-١٢٣).

١- قال الذهبي في «السير» (٣٢٦/٢٠): «كان حسن الطريقة، صينًا، دينًا، تقيًا، محبًا

بن يعقوب[١]، ومدرسة الشيخ عقيل المنبجي، وغيرها من المدارس)[٢].

للسنة والعلم والأدب، له أتباع ومحبون، أنشأ الملك نور الدين له بعد موته رباطًا كبيرًا عند درب الحجر، وكان صديقًا للشيخ رسلان الزاهد».

١- الشيخ الزاهد، العابد، بقية المشايخ، رسلان بن يعقوب بن عبد الرحمن الجعبري، ثم الدمشقي.

٢- انظر: هكذا ظهر جيل صلاح الدين (ص١٨٦-٢٥١).

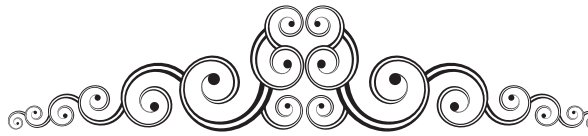

صلاح الدين في مصر

وَكَانَ الْعِمَاد لَهُ معرفَة بِنَجْم الدّين أيوب وأسد الدّين شيركوه ابْني شاذي من تكريت؛ بِسَبَب أنَّ عَمه الْعَزِيز أَحْمَد بن حَامِد اعتقله السُّلْطَان مَحْمُود بن مُحَمَّد بن ملكشاه بقلعة تكريت، وَنجم الدّين أيوب إذ ذَاك واليها فانتسجت الْمَوَدَّة بَينهم من هُنَاكَ؛ فَلَمَّا سمع نجم الدّين بوصوله بَكَّرَ إلى منزله لتبجيله، وَكَانَ شيركوه وَصَلَاح الدّين حِينَئِذٍ بِمصْر فمدح الْعِمَاد نجم الدّين أيوب بقصيدة مِنْهَا أولها:

يَوْم النَّوَى لَيْسَ من عُمْري بمحسُوبِ وَلَا الْفِرَاقُ إلى عَيْشِي بمنسوبِ

مَا احْتَرْت بعْدكَ لَكِنَّ الزَّمَان أتى كُرهًا بِمَا لَيْسَ يَا مَحْبُوب محبوبي

وفي سنة أربع وستين وخمس مئة: فتحت الديار المصرية وسار إليها أسد الدين مرة ثالثة فهزم العدو وقتل شاور[1]، وولي الوزارة مكانه ثمَّ مات

١ – وقصة مقتل شاور الخبيث أنَّه عزم على أن يعمل دعوة لأسد الدين ومن معه من الأمراء، ويقبض عليهم، فنهاه ابنه الكامل وقال له: واللهِ لئن عَزَمت على هذا الأمر لأُعرفنَّ أسد الدين. فقال له أبوه: والله لئن لم أفعل لنقتلنَّ جميعًا.
فقال: صدقت، ولأن نُقتل ونحن مسلمون والبلاد بيد المسلمين خيرٌ من أن نقتل وقد ملكها الفرنج، فليس بينك وبين عود الفرنج إلا أن يسمعوا بالقبض على شركوه، وحينئذٍ لو مشى العاضد إلى نور الدين لم يرسل فارسًا واحدًا، ويملكون البلاد. فترك ما كان عزم عليه، فلمَّا رأى العسكر النوري المطل من شاور اتفق صلاح الدين يوسف وعز الدين جرديك وغيرهما

فوليها صلاح الدين.

وسبب ذلك: أن الفرنجة كانوا في النوبتين الأوليين اللتين استعان بهم شاور فيهما على أسد الدين شيركوه قد خبروا الديار المصرية، واطلعوا على عوراتها فطمعوا فيها، ونقضوا ما كان استقر بينهم وبين المصريين وأسد الدين من القواعد؛ فجمعوا وحشدوا وقالوا ما بمصر من يصدنا،وإذا أردناها فمن يردنا، ثمَّ قالوا نور الدين في البلاد الشمالية والجهة الفراتية، وعسكر الشام متفرق كل منهم في بلده، حافظ لما في يده، ونحن ننهض إلى مصر ولا نطيل بها الحصر؛ فإنّه ليس لها معقل ولا لأهلها منّا موئل، وإلى أن تجتمع عساكر الشام نكون قد حصلنا على المرام، وقوينا بتملك الديار المصرية على سائر بلاد الإسلام. فتوجهوا إليها سائرين، ونحوها

على قتل شاور، وأعلموا أسد الدين بذلك، فنهاهم. فقالوا: إنَّا ليس لنا في البلاد شيء مهما هذا على حاله. فأنكر ذلك واتفق أن أسد الدين سار بعض الأيام إلى زيارة قبر الشافعيﷺ، وقصد شاور عسكره على عادته للاجتماع به، فلقيه صلاح الدين وعز الدين جُرديك، ومعهما جمع من العسكر، فخدموه وأعلموه أنَّ أسد الدين في الزيارة، فقال: نمضي إليه. فسار وهما معه قليلًا، ثمَّ ساوروه وألقوه عن فرسه، فهرب أصحابه وأخذ أسيرًا، ولم يمكنهم قتله بغير أمر أسد الدين، فسجنوه في خيمةٍ وتوكلوا بحفظه. فعلم أسد الدين الحال فعاد مسرعًا، ولم يمكنه إلا إتمام ما عملوه. وأرسل العاضد لدين الله؛ صاحب مصر، في الوقت إلى أسد الدين يطلب منه رأس شاور، ويحثه على قتله، وتابع الرسل بذلك. فقتل شاور في يومه، وهو سابع عشر ربيع الآخر، وحمل رأسه إلى القصر، ودخل أسد الدين إلى القاهرة، فرأى من كثرة الخلق واجتماعهم ما خاف منه على نفسه، فقال لهم أمير المؤمنين: قد أمركم بنهب دار شاور. فقصدها الناس ينهبونها، فتفرقوا عنهُ... هذا كما في «الروضتين» (٢/٥٦-٥٧)، و«سيرة الملك العادل» لقاضي شُهبة (ص٣٠٤-٣٠٥).

ثائرين، وأظهروا أنّهم على قصد حمص، وشايعهم على قصد مصر جماعة من أهلها كابن الخياط وابن قرجلة وغيرهما من أعداء شاور:

فعادوا عَلَى الأعقابِ مِنْها هزيمةً كأنَّهم ذلًا نعامٍ جوافل

ومَا أمَّلوا أنْ يلْحَقُوا بِبلَادِهِم لِتعْصِمَهُم ممَّا رأَوْهُ المعاقل

قال العماد: وسألني كريم الملك أن أعمل له أبياتًا في صلاح الدين تهنئةً بالنصر في دمياط، فعملت قصيدة منها:

يا يوسفَ الحسنِ والإحسانِ يا ملكاً بجدِّهِ صاعداً أَعداؤه هَبَطوا

حللتَ من وَسَطِ العلياءِ في شَرَفٍ ومركزُ الشّمسِ من أَفلاكِها الوَسَطُ

هنيتَ صونكَ دمياطَ التي اجتمعتْ لها الفرنجُ فما حَلُّوا ولا رَبَطوا

مصرٌ بيوسفِها أَضحتْ مشرَّفةً وكلُّ أَمرٍ لها بالعدلِ مُنْضَبِطُ

وحينَ وافى صلاحُ الدِّينِ أَصلحَها فللمصالحِ من أَيامه نَمَطُ [١]

١- وفيات الأعيان (١/٢٦٠).

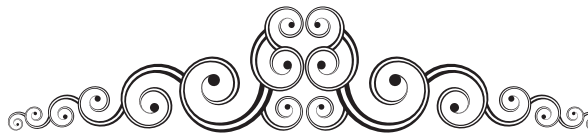

صلاح الدين وزيرًا في مصر خلفًا لعمه شيركوه

ويذكر أنَّ جماعةً من الأمراءِ النّوريّة الذين كانوا بمصرَ طلبوا التقدّم على العساكر وولاية الوزارة بعد موت أسد الدين شيركوه، منهم: الأمير عين الدولة الياروقي، وقطب الدين خسرو بن تليل، وسيف الدين علي بن أحمد الهكّاري، وشهاب الدين محمود الحارميَّ وهو خال صلاح الدين؛ وكلّ واحد من هؤلاء قد خطبها لنفسه؛ فأرسل العاضد صاحب مصر إلى صلاح الدين يأمره بالحضور إلى قصره ليخلع عليه خلعة الوزارة فلمّا حضر في القصر خلع عليه خلعة الوزارة: الجبّة والعمامة وغيرهما، ولقّب بالملك الناصر، وعاد إلى دار عمّه أسد الدين شيركوه وأقام بها، ولم يلتفت إليه أحد من أولئك الأمراءِ الذين يريدون الأمرَ لأنفسهِم ولا خدموه. وكان الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري معه، فسعى مع سيف الدين علي بن أحمد حتّى أماله إليه، وقال له: إنّ هذا الأمر لا يصل إليك مع وجود عين الدولة والحارميَّ وابن تليل، فمال إلى صلاح الدين. ثمَّ قصد شهاب الدين الحارميّ، وقال له: «إنّ هذا صلاح الدين هو ابن أختك وملكه لك»، وقد استقامَ له الأمر فلا تكن أوّل مَن يسعى في إخراجهِ

عنه ولا يصلُ إليك، ولم يزل به حتى أحضره أيضًا عنده وحلّفه له.

ثمَّ عدل إلى قطب الدين، وقال له: «إنّ صلاح الدين قد أطاعه الناس ولم يبق غيرك وغير الياروقي، وعلى كلّ حال فيجمع بينك وبين صلاح الدين أنّ أصله من الأكراد، ووعده وزاد في إقطاعه فأطاع صلاح الدين. ثمَّ عدل إلى عين الدولة الياروقي، وكان أكبر الجماعة وأكثرهم جمعًا، فاجتمع به فلم ينفع فيه رقاه ولا نفذ فيه سحره، وقال: «أنا لا أخدم يوسف أبدًا!» وعاد إلى نور الدين محمود ومعه غيره. فأنكر عليهم نور الدين فراقه، وقد فاتَ الأمر، ليقضي الله أمرًا كان مفعولًا. وثبتت قدم صلاح الدين ورسخ ملكه، وهو نائب عن الملك العادل نورالدين رحمه الله[١].

أَقُولُ وَالْأَتْرَاكُ قَدْ أَزْمَعَتْ ... مِصْرَ إِلَى حَرْبِ الْأَعَارِيبِ
رَبِّ كَمَا مَلَّكْتَهَا يَوسُفَ الصِّـ ... ـدِّيقَ مِنْ أَوْلَادِ يَعْقُوبِ
يَمْلِكُهَا فِي عَصْرِنَا يُوسُفُ الصَّـ ... ـدِقُ مِنْ أَوْلَادِ أَيُّوبِ
مَنْ لَمْ يَزَلْ ضَرَّابَ هَامِ الْعِدَا ... حَقًّا وَضَرَّابَ الْعَرَاقِيبِ[٢]

ثمَّ بعدَ ذلك توفي العاضد سنة (٥٦٧هـ) في يومِ عاشوراء، ونودي بصلاح الدين على مصر واليًا، وأقام الخطبةَ لبني العباس بمصر، وزالت الدول

١- النجوم الزاهرة (٦/١٦-١٨).
٢- الروضتين (٢/١٠-١١)، و«مفرج الكروب» (١/١٤٩)، و«البداية والنهاية» (١٦/٢١)، و«حسن المحاضرة» (٢/٣٣).

الفاطمية العبيدية، وقال في ذلك العماد:

تُوُفِّيَ الْعَاضِدُ الدَّعِيُّ فَمَا ... يَفْتَحُ ذُو بِدْعَةٍ بِمِصْرَ فَمَا

وَعَصْرُ فِرْعَوْنِهَا انْقَضَى وَغَدَا ... يُوسُفُهَا فِي الْأُمُورِ مُحْتَكِمَا

وَانْطَفَأَتْ جَمْرَةُ الْغُوَاةِ وَقَدْ ... بَاخَ مِنَ الشِّرْكِ كُلُّ مَا اضْطَرَمَا

وَصَارَ شَمْلُ الصَّلَاحِ مُلْتَئِمًا ... بِهَا وَعِقْدُ السَّدَادِ مُنْتَظِمَا

لَمَّا غَدَا مُعْلَنًا شِعَارُ بَنِي الْ ... عَبَّاسِ حَقًّا وَالْبَاطِلُ اكْتَتَمَا

وَبَاتَ دَاعِي التَّوْحِيدِ مُنْتَصِرًا ... وَمِنْ دُعَاةِ الْإِشْرَاكِ مُنْتَقِمَا

وَظَلَّ أَهْلُ الضَّلَالِ فِي ظُلَلٍ ... دَاجِيَةٍ مِنْ غَيَابَةٍ وَعَمَى

وَارْتَبَكَ الْجَاهِلُونَ فِي ظُلَمٍ ... لَمَّا أَضَاءَتْ مَنَابِرُ الْعُلَمَا

وَعَادَ بِالْمُسْتَضِيءِ مُمْتَهَدًا ... بِنَاءُ حَقٍّ قَدْ كَانَ مُنْهَدِمَا

وَاعْتَلَّتِ الدَّوْلَةُ الَّتِي اضْطُهِدَتْ ... وَانْتَصَرَ الدِّينُ بَعْدَمَا اهْتُضِمَا

وَاهْتَزَّ عِطْفُ الْإِسْلَامِ مِنْ جَذَلٍ ... وَافْتَرَّ ثَغْرُ الْإِسْلَامِ وَابْتَسَمَا

وَاسْتَبْشَرَتْ أَوْجُهُ الْهُدَى فَرَحًا ... فَلْيَقْرَعِ الْكُفْرُ سِنَّهُ نَدَمَا

عَادَ حَرِيمُ الْأَعْدَاءِ مُنْتَهَكَ الْ ... حِمَى وَفَيْءُ الطُّغَاةِ مُقْتَسَمَا

قُصُورُ أَهْلِ الْقُصُورِ أَخْرَبَهَا ... عَامِرُ بَيْتٍ مِنَ الْكَمَالِ سَمَا

أَزْعَجَ بَعْدَ السُّكُونِ سَاكِنَهَا وَمَاتَ ذُلًّا وَأَتْفُهُ رَغِمَا[١]

وها هنا مسألة: متى بدأت الدولة الأيوبية: يختلف المؤرخون حول تاريخ ابتداء الدولة الأيوبية، فالبعض يجعله منذ تولي صلاح الدين الوزارة من الخليفة الفاطمي العاضد لدين الله سنة (٥٦٤هـ).

والبعض الآخر يجعله مع إعادة الخطبة في مصر للخليفة العباسي؛ التي تلاها وفاة العاضد -كما مر- والصحيح: أنَّ سلطة صلاح الدين بدأت منذ توليه الوزارة[٢].

١- البداية والنهاية لابن كثير (١٦/٤٥٢-٤٥٣)، وقال ﷺ في نفس المصدر (١٦/٤٥٥) «وقد كانت مدة ملك الفاطميين مائتين وثمانين سنة وكسرا، فصاروا كأمس الذاهب وكأنْ لم يغنوا فيها، وكان أول من ملك منهم المهدي، وكان من سلميَّة حدادًا اسمه سعيد، وكان يهوديًا فدخل بلاد المغرب وتسمَّى بعبيد الله، وادعى أنَّه شريف علوي فاطمي، وقال: إنَّه المهدي، وقد ذكر هذا غير واحد من سادات العلماء الكبراء كالقاضي أبي بكر الباقلاني والشيخ أبي حامد الإسفراييني وغير واحد من سادات الأئمة بعد الأربعمائة، والمقصود أنَّ هذا الدعي الكذاب راج له ما افتراه في تلك البلاد، ووزرائه جماعة من جهلة العباد، وصارت له دولة وصولة، ثمَّ تمكن إلى أنْ بنى مدينة سمَّاها (المهدية) نسبةً إليه، وصار مَلِكًا مطاعًا، يظهر الرفض وينطوي على الكفرِ المحض».

٢- صلاح الدين وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية (ص٢٢٩) ط: زمزم بتصرف.

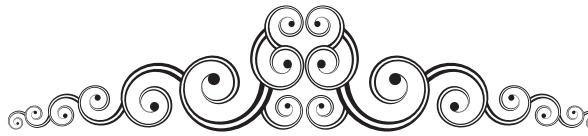

موجز لأهم الأحداث

في سنة ثمان وأربعين وخمسمائة: أخذت الفرنج خذلهم الله تعالى عسقلان[١] وبقيت في أيديهم إلى أن فتحها السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله سنة ثلاث وثمانين[٢].

وفي سنة اثنتين وستين: جهز السلطان نور الدين الأمير أسد الدين شيركوه في ألفي فارس إلى مصر، فنزل بالجيزة وحاصر مصر نحو شهرين، فاستنجد صاحبها بالفرنج، فدخلوا من دمياط لنجدته، فرحل أسد الدين إلى الصعيد، ثم وقعت بينه وبين المصريين حرب انتصر فيها على قلة عسكره وكثرة عدوه، وقتل من الفرنج ألوفًا، ثمَّ جبا أسد الدين خراج الصعيد، وقصد الفرنج الإسكندرية، وقد أخذها صلاح الدين يوسف بن أيوب فحاصروها أربعة أشهر، فتوجه أسد الدين إليهم، فرحلوا عنها، فرجع إلى الشام.

وفي سنة أربع وستين: قصدت الفرنجة الديار المصرية في جيش عظيم،

١- مدينة على ساحل بحر الشام من أعمال فلسطين، كان يقال لها عروس الشام لحسنها (آثار البلاد وأخبار العباد) لزكريا القزويني (ت ٦٨٢هـ) (ص٢٢٢).

٢- الروضتين (٢٨٨/١).

فملكوا بلبيس وحاصروا القاهرة، فأحرقها صاحبها خوفًا منهم ثمَّ كاتب السلطان نور الدين يستنجد به فجاء أسد الدين بجيوشه فرحل الفرنج عن القاهرة لما سمعوا بوصوله، ودخل أسد الدين فولاه العاضد صاحب مصر الوزارة وخلع عليه، فلم يلبث أسد الدين أن مات بعد خمسة وستين يومًا، فولى العاضد مكانه ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب، وقلده الأمور، ولقبه الملك الناصر فقام بالسلطنة أتم قيام[١].

وفي سنة خمس وستين وخمسمائة: أول صفر منها نزل الفرنج خذلهم الله تعالى على دمياط من الديار المصرية.

قال أبو شامة: وبلغني من شِدَّة اهتمام نور الدين رحمه الله بأمر المسلمين حين نزلَ الفرنج على دمياط أنَّه قرئ عليه جُزء من حديثٍ كان له به رواية، فجاء في جملة تلك الأحاديث حديث مسلسل بالتبسُّم، فطلَبَ منه بعضُ طلبة الحديث أن يتبسَّم لتتم السلسة، على ما عُرِف من عادةِ أهلِ الحديث، فغضب من ذلك وقال: «إنِّي لأستحيي مِن اللهِ تعالى أنْ يرَاني متبسمًا والمسلمونَ محُاصَرونَ بالفرنج»[٢].

ولم يظفروا بشيءٍ، لما رأوا تتابع العساكر إلى مصر، فرجعوا خائبين إلى بلادهم، فكان حالهم كما في المثل: «ذهبتِ النعامةُ تطلبُ قرنين،

١- تاريخ الخلفاء (ص٤٤١).
٢- المصدر السابق (٢/١٤٣).

فعادتْ بلا أُذُنين»[١].

وفيها: وصل نجم الدين أيوب والد السلطان المظفر صلاح الدين مصر، فخرج جميع الأمراء، ومعهم العاضد؛ لتلقيه، وخلع عليه، ولقَّبه: بـ(الملك الأفضل، وحمل إليه من القصرِ الألطاف والتُّحف والهدايا).

وقال له صلاح الدين: «يا أبتاه، هذا الأمر لك، ونحن بين يديك».

فقال له: «يا بُني ما اختارك الله لهذا الأمر إلا وأنت أَهْل له. وحكَّمه في الخزائن كلِّها»، وكان ﵀ كريمًا يُطْلق ولا يردُّ أحدًا[٢].

وبهذا صدق ما أنشده العماد في قصيدة قالها وبعدها بسنتَيْن تم ملكهم بمصر، وهي:

يَوْم النَّوَى لَيْسَ من عُمْري بمحسُوبِ ... وَلَا الْفِرَاقُ إلى عَيْشِي بمنسوبِ

مَا اخْتَرْت بعْدكَ لَكِنَّ الزَّمَان أتى ... كُرهًا بِمَا لَيْسَ يَا مَحْبُوب محبوبي

أرجو إيَابي إليكم ظَافراً عَجِلًا ... فقد ظَفِرْتُ بِنَجْمِ الدّينِ أيوبِ

موفَّقُ الرَّأْي ماضي الْعَزْم مُرْتَفع ... على الأعاجمِ مجْداً والأعاريبِ

أحبَّك اللهُ إذْ لازَمْتَ نَجْدَتَه ... على جبينٍ بتاجِ الْمُلْكِ مَعْصُوبِ

أخُوك وابْنِكِ صِدقًا مِنْهُمَا اعتصمَا ... بِاللهِ والنَّصْرُ وعْدٌ غيرُ مَكْذُوبِ

هما هُمَامانِ فِي يَوْمَيْ وغًى وقِرًى ... تعودَّا ضربَ هامٍ أَو عَرَاقِبِ

١- سيرة الملك العادل نور الدين (ص٣١٥).

٢- سيرة الملك العادل نور الدين (ص٣١٣)، و«مرآة الزمان» (٢١/١٥٦).

غَدا يشبانِ فِي الْكفَّارِ نَار وغى ... بلفحها يصبح الشبَّان كالشِّيبِ
بِملك مِصْرَ وَنصْرِ الْمُؤمنِينَ غَدًا ... تحظَى النُّفُوسُ بتأنيسٍ وتطييبِ
ويستقرُّ بِمصْرٍ يُوسُفٌ وَبِه ... تقرُّ بعد التَّنائي عيْنُ يَعْقُوبِ
ويلتقي يُوسُفٌ فِيهَا بأخوتِهِ ... وَاللهُ يجمعهُمْ مِن غيرِ تثْرِيب[1]

وفي سنة ست وستين وخمسمائة: تسلم الرقة، واستولى على الخابور وسنجار، وملك نصيبين.

وفي سنة سبع وستين وخمسمائة: أسقط المظفر المكوس عن أهل مصر، وخطب فيهم: أمَّا بعد، فإنَّا نحمد الله سبحانه على ما مكَّن لنا في الأرض، وحسَّنه عندنا من أداء كلِّ نافلة وفرض، ونصبنا له من إزالة النَّصب عن عباده، واختارنا له من الجهاد في الله حقَّ جهاده، وزهَّدنا فيه من متاع الدُّنيا القليل، وألهمنا من محاسبة أنفسنا على النَّقير والفتيل، وأولانا من شجاعة السماحة، فيومًا نَهَبُ ما اشتملت عليه الدَّواوين، ويومًا نقطع ما سقاه النَّيل.

فالبشائر في أيَّامنا تترى، شفعًا ووترًا، والمسار كنظام الجوهر تتبع الواحدة منها الأخرى، والمسامحات قد ملأت المسامع والمطامع، وأسخطت الخيمة والصناعة وأرضت المنبر والجامع، ولما تقلَّدنا أمور الرَّعية رأينا المكوس

١- الروضتين (٢/١٧-١٨).

الدِّيوانيَّة بمصر والقاهرة، أولى ما نقلناها من أن تكون لنا في الدُّنيا إلى أن تكون لنا في الآخرة، وأن نتجرَّد منها لنلبس أثواب الأجر الفاخرة، ونطهِّر منها مكاسبنا، ونصون عنها مطالبنا، ونكفي الرعيَّة ضرهم الذي يتوجه إليهم، ونضعُ عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم، ونعيدها اليوم كأمس الذاهب، ونضعها فلا ترفعها من بعد يد حاسب، ولا قلم كاتب. فاستخرنا الله وعجلنا إليه ليرضى، ورأينا فرصة أجر لا تغض عليها بصائرُ الأبصار ولا تغضى؛ وخرج أمرنا بكتب هذا المنشور بمسامحة أهل القاهرة ومصر، وجميع التجار المتردِّدين إليهما، وإلى ساحل المقسم، والمنية، بأبواب المكوس صادرها وواردها، فيرد التَّاجر ويسفر، ويغيب عن ماله ويحضر، ويقارضُ ويتجر برًّا وبحرًا، مركبًا وظهرًا، سرًا وجهرًا، لا يحلُّ ما شدَّه، ولا يحاول ما عنده، ولا يكشف ما ستره، ولا يسأل عمَّا أورده وأصدره، ولا يستوقف في طريقه، ولا يشرقُ بريقه، ولا يؤخذ منه طُعمة، ولا يستباح له حرمة. والذي اشتملت عليه المسامحة في السنة من العين مئة ألف دينار، مسامحة لا يتعقبها تأويل، ولا يتخوَّنها تحويل، ولا يعتريها زوال، ولا يعتورُها انتقال، دائمة بدوام الكلمة، قائمة ما قام دين القيِّمة، من عارضها رُدَّت أحكامه، ومن ناقضها نُقِضَ إبرامه، ومن أزالها زلَّت قدمه، ومن أحالها حلَّ دمُه، ومن تعقبها خُلِّدت اللعنة فيه وفي

عقبه، ومن احتاط لدنياه فيها أحاط به الجحيم الذي هو من حطبه. فمن قرأه، أو قُرئ عليه من كافِّة ولاة الأمر من صاحب سيف وقلم، ومشارف أو ناظر، فليمتثل ما مثل من الأمر، وليُمضِه على ممرِّ الدهر، مرضيًا لربِّه، ممضيًا لما أُمِر به[١].

وفي سنة سبع وستين وخمسمائة: نزل على الكرك[٢] والشوبك وغيرهما من الحصون فبرَّح بها، وفرَّق عنها عربها، وخرب عماراتها، وشنَّت على أعمالها سراياه بغاراتها، وهي أول غزوة غزاها السلطان المظفر صلاح الدين من الديار المصرية، وإنَّما بدأ ببلاد الكرك والشوبك لأنَّها كانت أقرب إليه، وكانت في الطَّريقِ تمنعُ من يقصد الديار المصريَّة، وكان لا يمكن أن تصل قافلة حتى يخرجَ هو بنفسه يُعبِّرها بلاد العدوِّ، فأراد توسيع الطريق وتسهيله لتتَّصل البلاد بعضها بعض، وتسهل على السَّابلة.

وفي السنة الثامنة وستين وخمسمائة: دخل قراقوش -بالقاف المكررة، والراء، والشين المعجمة- ابن أخي السلطان صلاح الدين بلاد المغرب، فنازل طرابلس مدة، ثمَّ افتتحها، وكانت للفرنج.

وفيها: سير السلطان المظفر صلاح الدين أخاه شمس الدين توران شاه

١- الروضتين (٢/٢٣٢-٢٣٤).

٢- حصن مشهور بناحية الشام ومعقل مشهور (الروض المعطار في أخبار الأقطار) (ص٤٩٣).

بن أيوب الملقب بالملك المعظم إلى اليمن، فافتتحه، وقبض على عبد النبي المتغلب على اليمن، ويقال: كان ذلك بإشارة من الخليفة العباسي إلى نور الدين محمود بن زنكي بأن يرسل أحدًا من قبله إلى المتغلب باليمن لما شكاه أهل اليمن إلى الخليفة، فكتب نور الدين إلى صلاح الدين بإرسال أحد إلى اليمن، فأرسل أخاه شمس الدولة[١].

وفيها: مات نجم الدين والد السلطان المظفر صلاح الدين، وذلك بأنَّه سقط عن فرسه فمات بعد ثمانية أيام رحمه الله.

وفيها: بنى الملك العادل نور الدين مدرسة للشافعية بقرب الجاروخية[٢]، وهي المدرسة المعروفة بالعادلية[٣].

وفي سنة تسع وستين وخمسمائة: أكثر السلطان نور الدين من الصدقات والصلات، وزاد الأوقاف، وكسا اليتامى، وزوج الأرامل، وأغنى الفقراء، وكشف المظالم بحيثُ لم يبقَ في بلاده مظلمة[٤].

وفيها: مات السلطان العادل نور الدين رحمه الله[٥].

وفي سنة سبعين وخمسمائة: أخذ السلطان دمشق بلا ضربة ولا طعنة،

١- قلادة النحر (٤/٣٠١).
٢- الجاروخية مدرسة من مدارس دمشق. (الدارس في تاريخ المدارس) (١/٢٢٥-٢٣٢).
٣- سيرة الملك العادل لقاضي شُهبة (ص٣٥٥-٣٥٧).
٤- المصدر السابق (ص٣٦١).
٥- الروضتين (٢/٣٠٨)، و«الكامل» (٩/٣٩٣).

وسار الصالح إسماعيل بن نور الدّين الشهيد في حاشيته إلى حلب، ثمَّ سار صلاح الدّين، فحاصر حمص بالمجانيق، ثمَّ سار فأخذ حماة في جمادى الآخرة، ثمَّ سار فحاصر حلب[١].

وفي سنة إحدى وسبعين وخمسمائة: سار الملك المظفر، فأخذ منبج، ثمَّ نازل قلعة عزاز مدة، وقفز على الإسماعيلية[٢]. فجرحوه في فخذه، وأخذوا فقتلوا، وافتتح القلعة[٣].

وفي سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة: فيها أمر صلاح الدّين ببناء السور الكبير المحيط بمصر والقاهرة من البرّ، وطوله تسعة وعشرون ألف ذراع وثلاثمائة ذراع بالقاسمي، فلم يزل العمل فيه إلى أن مات صلاح الدّين وأنفق عليه أموالًا لا تحصى، وكان مشيد بنائه قراقوش[٤]، وأمر أيضًا

١- شذرات الذهب (٦/٣٩١).

٢- وحصل ذلك مرة ثانية، كما قال ابن واصل في حصار عزاز: كانت لجاولي خيمة كان السلطان يحضر فيها، ويحض الرجال، فحضر باطنية في زي الأجناد، فقفز عليه واحد ضربه بسكين لولا المغفر الزرد الذي تحت القلنسوة، لقتله، فأمسك السلطان يد الباطني بيديه، فبقي يضرب في عنق السلطان ضربا ضعيفا، والزرد تمنع، وبادر الأمير بازكوج، فأمسك السكين، فجرحته، وما سيبها الباطني حتى بضعوه، ووثب آخر، فوثب عليه ابن منكلان، فجرحه الباطني في جنبه، فمات، وقتل الباطني، وقفز ثالث، فأمسكه الأمير علي بن أبي الفوارس، فضمه تحت إبطه، فطعنه صاحب حمص، فقتله، وركب السلطان إلى مخيمه، ودمه يسيل على خده، واحتجب في بيت خشب، وعرض جنده، فمن أنكره، أبعده. كما في «مفرج الكروب» (٢/٤٤-٤٥)، و«سير أعلام النبلاء» (٢١/٢٨١) والمثبت منه.

٣- شذرات الذهب (٦/٣٩٥)، و«سير أعلام النبلاء» (٢١/٢٨٠).

٤- أبو سعيد قراقوش بن عبد الله الأسدي، الملقب بهاء الدين، وقراقوش لفظ تركي تفسيره بالعربي (العقاب)، الطائر المعروف، وبه سمي الإنسان. كان خادم صلاح الدين، وقيل: خادم

بإنشاء قلعة الجبل، ثمَّ توجه إلى الإسكندرية، وسمع الحديث من السّلفي[١].

وفي سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة: كانت وقعة الرّملة، سار صلاح الدّين من مصر، فسبى وغنم ببلاد عسقلان، وسار إلى الرّملة فالتقى الفرنج، فحملوا على المسلمين وهزموهم وثبت السلطان وابن أخيه تقي الدّين عمر، ودخل الليل، واحتوت الفرنج على المعسكر بما فيه، وتمزّق العسكر وعطشوا في الرمال، واستشهد جماعة وتحيّز صلاح الدّين ونجا، ولله الحمد. وقتل ولد لتقيّ الدّين عمر، وله عشرون سنة، وأسر الأمير الفقيه عيسى الهكّاري، وكانت نوبة صعبة، ونزلت الفرنج على حماة وحاصرتها أربعة أشهر لاشتغال السلطان بلمِ شعث العسكر[٢].

وفي سنة ثمان وسبعين وخمسمائة: سار فافتتح حرّان، وسروج، وسنجار،

أسد الدين شيركوه عم السلطان صلاح الدين، فأعتقه، ولما استقل صلاح الدين بالديار المصريَّة جعله زمام القصر، ثمَّ ناب عنه مدة بالديار المصرية، وفوض أمورها إليه واعتمد في تدبير أحوالها عليه، وكان رجلًا مسعودا وصاحب همة عالية، وهو الذي بنى السور المحيط بالقاهرة ومصر وما بينهما وبنى قلعة الجبل، وبنى القناطر التي بالجيزة على طريق الأهرام، وهي آثار دالة على علو الهمة. كما في «وفيات الأعيان» (٤/٩١).

ومن هنا تعلم خطأ المثل: (حكم قراقوش)، قال ابن خلكان في المصدر السابق –وفيات الأعيان– (٤/٩٢) والناس ينسبون إليه أحكامًا عجيبة في ولايته، حتى إنَّ الأسعد بن مماتي له جزء لطيف سمَّاه: «الفاشوش في أحكام قراقوش» وفيه أشياء يبعد وقوع مثلها منه، والظاهر أنَّها موضوعة، فإنَّ صلاح الدين كان معتمدًا في أحوال المملكة عليه، ولولا وثوقه بمعرفته وكفايته ما فوضها إليه..

١- العبر (٤/ ٢١٤).

٢- شذرات الذهب (٦/٤٠٥)، و«سير أعلام النبلاء» (٢١/٢٨٠).

ونصيبين، والرّقّة[١].

وفي سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة: افتتح صلاح الدّين بالشام فتحًا مبينًا، ورزق نصرًا متينًا، وهزم الفرنج وأسر ملوكهم، وكانوا أربعين ألفًا، ونازل القدس وأخذه، وكان المنجمون قد قالوا له: تفتح القدس[٢] وتذهب عينك الواحدة، فقال: رضيت أن أفتحه وأعمى، فافتتحها بعد أن كانت بأيدي الفرنج أكثر من تسعين سنة ثمَّ أخذ عكا وبيروت، ثمَّ جال فافتتح عدة حصون، ودخل على المسلمين سرور لا يعلمه إلّا الله تعالى[٣].ثمَّ إنَّ الفرنج قامت قيامتهم على بيت المقدس، وأقبلوا كقطيع الليل المظلم برًا وبحرًا وأحاطوا بعكا ليستردوها وطال حصارهم لها، وبنوا على نفوسهم خندقا، فأحاط بهم السلطان، ودام الحصار لهم وعليهم نيفًا وعشرين شهرًا، وجرى في غضون ذلك ملاحم وحروب تشيب النَّواصي، وما فكوا حتى أخذوها، وجرت لهم وللسلطان حروب وسير. وعندما ضرس الفريقان، وكل الحزبان، تهادن الملتان[٤].

١- شذرات الذهب (٤٢٧/٦)، و«العبر في خبر من غبر» (٧٤/٣).

٢- يقول السيوطي في «تاريخ الخلفاء» (ص٤٥٠): «وكان بقاؤه في يد الفرنج إحدى وتسعين سنة، وأزال السلطان ما أحدثه الفرنج من الآثار، وهدم ما أحدثوه من الكنائس، وبنى موضع كنيسة منها مدرسة للشافعية، فجزاه الله عن الإسلام خيرًا، ولم يهدم القمامة اقتداء بعمر رضي الله عنه حيث لم يهدمها لما فتح بيت المقدس».

٣- شذرات الذهب (٤٥٢/٦)، و«سير أعلام النبلاء» (٢٨٠/٢١).

٤- سير أعلام النبلاء (٢٨١/٢١).

وطار في النَّاسِ أنَّ السلطان عزمٌ على فتح بيت المقدس فقصده العلماء والصالحون والمتطوعة من كلِّ فجٍ عميقٍ، وجاء أخوه العادل بعد وقعة حطين وفتح عكا ففتح بنفسه حصونًا كثيرة أيضًا، فاجتمع من عباد الله ومن الجيوش المتطوعة خلْق كثير وجمٌّ غفير، فعند ذلك قصد السلطان بيت المقدس بمن معه[١].

وكان نزول السلطان على القدس في يوم الأحد الخامس عشر من شهر رجب سنة ثلاث وثمانين المذكورة، ونزل بالجانب الغربي، وكان مشحونًا بالمقاتلة من الخيّالة والرّجّالة حتّى إنّه حزر أهل الخبرة، ممّن كان مع السلطان، من كان فيه من المقاتلة فكانوا يزيدون على ستين ألفًا خارجًا عن النساء والصّبيان؛ ثمَّ انتقل السلطان لمصلحة رآها إلى الجانب الشمالي في يوم الجمعة العشرين (٢٠ من رجب) ونصب عليها المجانيق وضايق البلد بالزّحف والقتال حتّى أخذ النّقب في السور ممّا يلي وادى جهنّم؛ ولما رأى العدوّ ما نزل بهم من الأمر الذي لا مدفع لهم عنه، وظهرت لهم أمارات فتح المدينة وظهور المسلمين عليهم، وكان قد اشتدّ روعهم لما جرى على أبطالهم ما جرى، فاستكانوا إلى طلب الأمان، وسلّموا المدينة في يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب، وليلته كانت ليلة المعراج

١- البداية والنهاية (١٦/٥٨٤).

المنصوص عليها في القرآن الكريم. فانظر إلى هذا الاتفاق العظيم، كيف يسر الله تعالى عوده إلى المسلمين في مثل زمان الإسراء بنبيّهم ﷺ[١].

وفي حطين ينقل أبو شامة واقع الحال بالنسبة لجند إبليس من كفرة الفرنج، وفيها: «من شاهد القتلى قال ما هناك أسير، ومن عاين الأسرى قال ما هناك قتيل، ومذ استولى الفرنج على ساحل الشام ما شفي للمسلمين كيوم حطين غليل!»[٢].

وقد قتل في فتح بيت المقدس أثناء الحصار من الفريقين الكثير، وممَّن قتل الأمير عز الدين عيسى بن مالك، واستمر القتال عنيفًا بعد ذلك، ويصف (غروسيه) المعركة التي دار عند أسوار المدينة بأنَّها كانت من الضراوة ما لم يُسمع بمثلهِ، كما كانت عطشًا حقيقًا للشّهادة. وهو يستطرد: لقد كانت المعارك الأكثر ضراوةً، كما لم يشهده إنسان، فكلُّ رجل من الجيشين كان ينظر إلى الصراع كفعلٍ دينيّ، والتزامٍ حتميّ. وقد تفوُّق صلاح الدين في المدفعية إلى درجة: أنَّ سقوط المدينة كان حتميًا، وأنَّ النقابين العاملين تحت غطاءٍ من حجارة المجانيق نجحوا في فتح ثغرة في جدار السُّورِ، وقرر الفرسان والنبلاء الصليبيون القيام بهجومٍ انتحاريّ على المسلمين خارج الأسوار؛ إلا أن بِطريقهم (هرقل) ردعهم عن ذلك

١- النجوم الزاهرة (٦/٣٤).
٢- الروضتين (٣/٢٨٤).

بعد أنْ أقنعهم: أنَّ عملهم البطولي هذا لن يكون سوى التخلي عن النساء والأطفال للعدوِّ بلا دفاع[١].

وفي هذا يقول العماد الكاتب:

حَطَطْتَ على حِطِّينَ قَدْرَ مُلُوكِهِمْ ... ولم تُبْقِ من أجناس كُفْرِهُمُ جِنْسا

بطونُ ذئابِ الأَرْضِ صَارت قبورَهُمْ ... ولم تَرْضَ أرضٌ أنْ تكون لهم رَمْسا

وقد طابَ رَيَّانا على طَبَرِيَّةٍ ... فيا طِيبَها رِيًّا ويا حُسْنَها مَرْسى[٢]

وقال ابنُ السَّاعاتي:

جَلَتْ عَزَماتُك الفَتْحَ المبِينا ... فقد قَرَّتْ عيونُ المؤْمنينا

وهانَ بك الصَّليبُ وكادْ قِدْمًا ... يَعُزُّ على العوالي أن يَهُونا

يقاتِلُ كلُّ ذي مُلْك رياءً ... وأنتَ تقاتلُ الأعداءَ دِينا

فَقَلْبُ القُدْس مسرورٌ ولولا ... سُطاك لكان مكتئبًا حزينا[٣]

وفي سنة أربع وثمانين وخمسمائة: خرجت طائفة من الرافضة بمصر يريدون أن يعيدوا دولة الفاطميين، واغتنموا غيبة العادل عن مصر، واستخفوا أمر العزيز عثمان بن صلاح الدين، فبعثوا اثني عشر رجلًا ينادون في الليل: «يا لعلي، يا لعلي». بناء على أنَّ العامة تجيبهم إلى ما

١- صلاح الدين (ص٥٣٧-٥٣٨) ط: زمزم.
٢- مرآة الزمان (٣١٨/٢١)، و«الروضتين» (٣٠٢/٣)، و«النجوم الزاهرة» (٣٤/٦).
٣- المصدر السابق، و«مفرج الكروب» (١٩٨/٢).

عزموا عليه، فلم يلتفت إليهم أحد ولا منعهم من النَّاس أحد فلمَّا رأوا ذلك انهزموا فأدركوا وأخذوا وقيدوا وحبسوا، ولما بلغ أمرهم إلى السلطان صلاح الدين ساءه ذلك واهتم له، وكان الفاضل عنده بعد لم يفارقه، فقال له: **أيها الملك ينبغي أن تفرح ولا تحزن، فإنَّه لم يصغِ إلى دعوة هؤلاء الجهلة أحد من رعيتك ولو التفتوا إليهم، فلو أنَّك بعثت من قبلك جواسيس يختبرون رعيتك لسرك ما يبلغك عنهم**. فسرى ذلك عنه، ورجع إلى قوله، ولهذا أرسله إلى مصر؛ ليكون له عينًا وعونًا معينًا[١].

وفي سنة خمس وثمانين وخمسمائة: نزل الفرنج خذلهم الله على عكا -وهذه تعرف بالحملة الصليبية الثالثة-، وقد حضروا البلاد لقتال المسلمين وسلطانهم المظفر، برجالهم ونسائهم، فكانوا كما قال أبو شامة: في البحر امرأة كبيرة القدر، وافرة الوَفْر، وفي جملتها خمس مئة فارس بخيولهم وأتباعهم، وغلمانهم وأشياعهم، وهي كافلةٌ بكل ما يحتاجون إليه من المؤنة، زائدة بما تنفقه فيهم على المعونة، وهم يركبون بركباتها، ويحملون بحملاتها، ويثبون لوثباتها.

وفي الفرنج نساء فوارس، لهنَّ دروعٌ وقوانس، وكنَّ في زي الرِّجال، ويبْرزن

١- البداية والنهاية (١٦/٦٠٣-٦٠٤).

في حومة القتال، ويعملن عمل أرباب الحِجا، وهنَّ ربَّاتُ الحجال، وكل هذا يعتقدنه عبادة، ويخَلْنَ أنهنَّ يعقدن به سعادة، ويجعلنه لهنَّ عادة، فسبحان الذي أضلهنَّ وعن نهج الهدى أزلهنَّ[١].

قال القاضي ابن شداد: ولما دخل شهرُ رمضان من سنة خمسٍ وثمانين وصل من حلب كتبٌ من ولده الظَّاهر يخبر فيها أنَّه قد صح أنَّ ملك الألمان خرج إلى القُسطنطينية في عِدَّةٍ عظيمة -قيل مئتا ألف وقيل مئتان وستون ألفًا- يريد البلاد الإسلاميَّة فاشتد ذلك على السلطان، وعظُم عليه، ورأى استنفار النَّاسِ للجهاد، وإعلام خليفة الوقت بهذه الحادثة، فاستندبني لذلك وأمرني بالمسير إلى صاحب سِنجار وصاحب الجزيرة، وصاحب الموصل، وصاحب إربل، واستدعائهم إلى الجهاد بأنفسهم وعساكرهم، وأمرني بالمسير إلى بغداد، فسرت الحادي عشر رمضان ويسَّر الله تعالى الوصول إلى الجماعة وإبلاغ الرسالة إليهم، فأجابوا إلى

١- الروضتين (١٠٦/٤)، قال ابن الأثير في «الكامل» (٧٤/١٠) «وكان صلاح الدين لما انهزم القلب قد تبعهم يناديهم، ويأمرهم بالكرة، ومعاودة القتال، فاجتمع معه منهم جماعة صالحة، فحمل بهم على الفرنج من وراء ظهورهم وهم مشغولون بقتال الميسرة، فأخذتهم سيوف الله من كل جانب، فلم يفلت منهم أحد، بل قتل أكثرهم، وأخذ الباقون أسرى، وفي جملة من أسر مقدم الداوية الذي كان قد أسره صلاح الدين وأطلقه، فلما ظفر به الآن قتله. وكانت عدة القتلى، سوى من كان إلى جانب البحر، في عشرة آلاف قتيل، فأمر بهم، فألقوا في النهر الذي يشرب الفرنج منه وكان عامة القتلى من فرسان الفرنج، فإن الرجالة لم يلحقوهم، وكان في جملة الأسرى ثلاث نسوة فرنجيات كُنَّ يقاتلن على الخيل، فلمَّا أسرن، وألقي عنهنَّ السلاح عرفن أنَّهن نساء».

ذلك نفوسهم[١].

وقدَّر الله عليهم العذاب، وحصل بهم النكال، ولم يحصلوا المطلوب، فكان العاقبة أنَّهم «ولما وصلوا إلى حدود بلاد الإسلام، وسلكوا في الأودية والآجام، والوهادِ والآكام، تسلمهم تركمان الأوج[٢]، وتراكم الثُّلوج، وشتاء الكلاب في كلب الشتاء[٣]، واحتاجوا إلى أكل الدَّواب، وإحراق عُدَدهم، لإعواز الأحطاب، وعدموا العلف، وما وجدوا الخلف، ومناهل الزُّلال جامدة، وهم بالبلاد جاهلون، ومن البلاء ناهلون، لا يقطعون في يومين فرسخًا، وقد أذهب الله عنهم البركة، وصعَّب عليهم الحركة، وخرج الأمر عن حسابهم، وهم كلَّ يومٍ في نقصٍ من أنفسهم ودوابهم»[٤].

١- المصدر السابق (٤/١١١).
٢- الأوج: قوم من التركمان ينسبون إلى قرية أود وراء سيحون (معجم البلدان).
٣- كلَبُ الشتاء: شدته وحدته (اللسان).
٤- المصدر السابق (٤/١١٤).

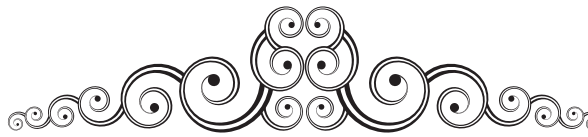

ملخص مفيد

- ولد السلطان المظفر سنة (٥٣٢هـ).
- وفد إلى مصر في جيش أسد الدين شيركوه للمرة الأولى سنة (٥٥٩هـ).
- وفد إلى مصر ثانية في جيش عمه سنة (٥٦٢هـ).
- وفد إلى مصر ثالثة في جيش عمه سنة (٥٦٣هـ).
- وتولى الوزارة سنة (٥٦٤هـ).
- سقطت الخلافة العبيدية في مصر سنة (٥٦٧هـ).
- دبرت مؤامرة لإحياء الدولة العبيدية فقضى عليها سنة (٥٦٩هـ).
- توفي السلطان نور الدين زنكي سنة (٥٦٩هـ).
- سافر إلى الشام لتدعيم الوحدة سنة (٥٧٠هـ).
- محاولة اغتياله سنة (٥٧٢هـ).
- رجوعه لمصر سنة (٥٧٢هـ).
- معارك مع الصليبين تكلَّلت بالنصر سنة (٥٧٣هـ).
- عاد إلى الشام سنة (٥٧٤هـ).
- انتصارات قومه على الصليبين في معارك شتى سنة (٥٧٦هـ).

- بناء الأسطول المصري وظهور القوة البحرية سنة (٥٧٦هـ).
- العودة إلى مصر ثمَّ الذهاب إلى دمشق سنة (٥٧٨هـ).
- معركة حطين سنة (٥٨٣هـ).
- فتح البيت المقدس وتحريره سنة (٥٨٣هـ).
- معركة عكا سنة (٥٨٧هـ).
- صلح الرملة سنة (٥٨٩هـ).
- وفاة السلطان صلاح الدين رحمه الله سنة(٥٨٩هـ)[1].

١- صلاح الدين الأيوبي قاهر العدوان الصليبي (ص١١-١٢) بتصرف.

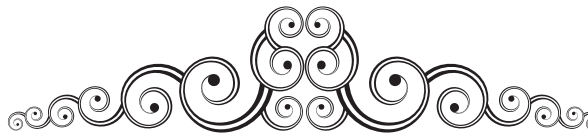

وفاته

ولما كان السادس عشر صَفَر وَجَدَ الملك المظفر ﷺ كسلًا، وحُمَّ حُمَّى صفراوية، وكان قد ركب، فالتقى الحاج، وبكى وتأسَّف حيث لم يكن معهم، وأصبح يوم السبت والحُمَّى بحالها، وتزايد به المرض حتَّى ضَعُفَ، وأجمع الأطباء على أنَّه لا يفصد، فخالفهم الرَّحْبي الطبيب، وفصده، فكان سببَ وفاته، وحُجِبَ عن الرِّجال وتولَّاه النساء، وأحضر الأفضل الأمراء: سَعْد الدِّين مسعود أخو بدر الدين مودود شِحْنة دمشق، وناصر الدين صاحب صهيون، وسابق الدين عثمان صاحب شَيزَر بن الدَّاية، وميمون القَصْري، واليكي الفارس، وأيبك فطيس، وحسام الدين بشارة، وسامة الجيلي وغيرهم، فاستحلفهم لنفسه، وكان عند السُّلْطان أبو جعفر إمام الكلاسة يقرأ القرآن، فلما انتهى إلى قوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلا هُوَ عَالِمُ الْغَيبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ [الحشر: ٢٢] وكان قد غاب ذِهْنه، ففتح عينيه، وقال: صحيح.

وكانت وفاته يوم الأربعاء بعد صلاة الفجر، في السَّابع والعشرين من صفر، وغسله الخطيب الدَّوْلعي، وصلَّى عليه القاضي محيي الدين بن

الزكي، وبعث له القاضي الفاضل الأكفان والحَنُوط من أَحلِّ الجهات، دفن بدار البُسْتان موضع جلوسه[١].وكان أهل دمشق لم يصابوا بمثل مصابه وود كل منهم لو فداه بأولاده وأحبابه وأصحابه وقد غلقت الأسواق واحتفظ على الحواصل، ثم أخذوا في تجهيزه وغسله وحضر جميع أولاده وأهله، ويعز عليهم أن يأتوا بمثله، وكان الذي تولى غسله خطيب البلد الفقيه الدولعي[٢].

وكتب القاضي الفاضل تعزية إلى ابنه صاحب حلب: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُوْلِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]، ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيْمٌ﴾ [الحج: ١] كتبت إلى مولانا الملك الظاهر أحسن الله عزاءه، وجبر مصابه، وجعل فيه الخلف من السلف في الساعة المذكورة، وقد زلزل المسلمون زلزالًا شديدًا، وقد حضرت الدموع المحاجر، وبلغت القلوب الحناجر، وقد ودعت أباك ومخدومي وداعًا لا تلاقي بعده، وقبلت وجهه عنِّي وعنك، وأسلمته إلى الله وحده مغلوب الحيلة، ضعيف القوة، راضيًا عن الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وبالباب من الجنود المجندة، والأسلحة المعمدة ما لم يدفع البلاء، ولا ما

١- مرآة الزمان (٢٢/٢٢)، و«الكامل» (١١٨/١٠)، و«سير أعلام النبلاء» (٢١/ ٢٨٧) و«البداية والنهاية» (٦٣٨/١٦).

٢- البداية والنهاية (٦٥٢/١٦).

يرد القضاء، تدمع العين، ويخشع القلب، ولا نقول إلا ما يرضي الرب، وإنا بك يا يوسف لمحزونون.

وأمَّا الوصايا، فما تحتاج إليها، والآراء، فقد شغلني المصاب عنها، وأمَّا لائح الأمر، فإنَّه إن وقع اتفاق، فما عدمتم إلا شخصه الكريم، وإن كان غير ذلك، فالمصائب المستقبلة أهونها موته[١]. رحمه الله ورضي عنه.

مات ولم يخلف في خزانته من الذهب والفضة إلا سبعة وأربعين درهمًا ناصرية، وجرمًا واحدًا ذهبًا صوريًا، ولم يخلف ملكًا لا دارًا ولا عقارًا، ولا بستانا ولا قرية ولا مزرعة[٢].

ودفن معه سيفه الذي كان معه في الجهاد، وكان ذلك برأي الفاضل.

وقيل عنه: «هذا يتوكَّأ عليه إلى الجنة»[٣].

قال العماد:

بالله أين النَّاصِرُ الملك الَّذي ... لله خالصةً صَفَتْ نِيَّاتُهُ

أين الَّذي مُذْ لم تَزَلْ مَخْشِيَّةً ... مَرْجُوَّةً هَبَّاتُهُ وَهِبَاتُهُ

أين الَّذي كانت له طاعاتنا ... مبذولةً ولرَبِّهِ طاعاتُهُ

أين الَّذي ما زال سُلْطانًا لنا ... يُرْجى نَدَاه وتُتَّقى سَطَواتُهُ

١- سير أعلام النبلاء (٢١/ ٢٨٩-٢٩٠).
٢- الروضتين (٤/٣٧٥)، و «حسن المحاضرة» (٢/٤٨-٤٩).
٣- الروضتين (٤/٣٦٩).

أين الَّذي شَرُفَ الزَّمان بفَضْله ... وسَمَتْ على الفُضَلاءِ تَشْريفاتُهُ

لا تَحْسَبُوه ماتَ شَخْصٌ واحدٌ ... قد عَمَّ كلَّ العالمين مماتُهُ

مَلِكٌ عن الإسلام كان محاميًا ... أبدًا لماذا أَسْلَمَتْهُ حُماتُهُ

قد أظلمت مُذْ غاب عنَّا دُورُه ... لما خَلَتْ من بَدْره داراتُهُ

دُفِنَ السَّماحُ فليس تُنْشَرُ بعدما ... أَوْدَى إلى يوم النُّشور رُفاتُهُ

الدِّينُ بعد أبي المظَفَّر يوسُفٍ ... أَقْوَتْ قُواه وأَقْفَرَتْ ساحاتُهُ

بحرٌ خلا من وارديه ولم تَزَلْ ... محفوفةً بوروده حافَاتُهُ

مَنْ لليتامى والأرامل راحِمٌ ... متعطِّفٌ مفضوضةٌ صدقاتُهُ

لو كان في عَصْرِ النَّبيِّ لأُنْزِلَتْ ... من ذِكْرِهِ في ذِكْرِهِ آياتُهُ

بَكَتِ الصَّوارِمُ والصَّواهِلُ إذ خَلَتْ ... من سَلِّها وركوبها عَزَماتُهُ

يا وحشة الإسلام يوم تمكَّنت ... في كل قلبٍ مؤمن روعاتُهُ

ما كان أسرعَ عَصْرَه لما انقضى ... فكأنما سنواتُهُ ساعاتُهُ

يا راعيًا للدين حين تمكَّنَتْ ... منه الذئاب وأسلمتْهُ رُعاتُهُ

ما كان ضرك لو أقمت مراعيًا ... دينًا تولى مذ رحلت وُلاتُهُ

فارقتَ مُلْكًا غير باقٍ مُتْعبًا ... ووصَلْتَ مُلْكًا باقيًا راحاتُهُ

فعلى صلاح الدين يوسفَ دائمًا ... رضوانُ رَبِّ العرش بل صلواتُهُ[1]

١- مرآة الزمان (٢٢/٢٣-٢٤)

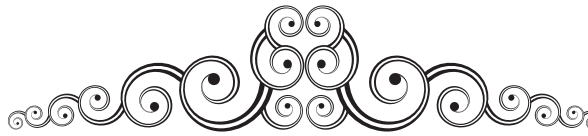

حال أهله وأولاده بعده

ولما مات الملك المظفر صلاح الدين بدمشق كان معه بها ولده الأكبر الأفضل نور الدين علي، وكان قد حلف له العساكر جميعها، غير مرة في حياته، فلما مات ملك دمشق، والساحل، والبيت المقدس وبعلبك، وصرخد، وبصرى وبانياس.

وكان ولده **الملك العزيز عثمان بمصر**، فاستولى عليها واستقر ملكه بها.

وكان ولده **الظاهر غازي بحلب** فاستولى عليها، وعلى جميع أعمالها مثل: حارم، وتل باشر، وإعزاز وبرزية، ودرب ساك، ومنبج وغير ذلك.

وكان **بحماة محمود بن تقي الدين عمر**.

وكان **بحمص والرحبة شيركوه بن محمد بن شيركوه**.

وكان لأخيه **الملك العادل الكرك والشوبك وبلاد جعبر وبلاد كثيرة** قاطع الفرات[١].

واليمن بمعاقله ومخاليفه جميعه في قبضة السلطان ظهير الدين سيف الإسلام طغتكين بن أيوب أخي السلطان صلاح الدين.

١- الكامل (١٠/١٢٠).

وبعلبك وأعمالها للأمجد بهرام شاه بن فروخشاه.

وبصرى وأعمالها للظافر بن الناصر، ثمَّ شرعت الأمور بعد موت صلاح الدين تضطرب وتختلف وتتفاقم في جميع هذه الأحوال، حتى آل الأمر إلى ما آل إليه، واستقرت الممالك، واجتمعت المحافل على أخي السلطان، الملك العادل، وصارت المملكة في أولاده الأماجد الأفاضل[١].

١- البداية والنهاية (١٦/٦٥٩).

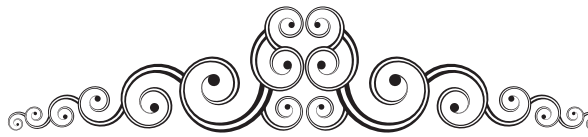

العوامل المساعدة لقيام الدولة الزنكية والأيوبية وتحرير المسجد الأقصى

من أبرز الأسباب المساعدة على قيام الدولة الأيوبية والنورية بأوجز الاختصار:

(١) الجهاد في سبيل الله[١] بكافة نخب المجتمع (جنود، وزهاد، وأحداث[٢]، وقضاة وعلماء...). قال ابن خلكان عن فتح القدس: «وكان فتحه عظيماً شهده من أهل العلم خلق، ومن أرباب الخرق والزهد عالم، وذلك أنَّ النَّاس لما بلغهم ما يسره الله تعالى على يده من فتوح الساحل وقصده القدس، قصده العلماء من مصر والشام، بحيث لم يتخلف أحد منهم، وارتفعت الأصوات بالضجيج بالدعاء والتهليل والتكبير....»[٣].

وعلى رأس العلماء (ابن قدامة، وهو الذي قال عن فتح حطين: «ولو حمدنا الله ﷻ طول أعمارنا ما وفينا بعشر معشار نعمته التي أنعم بها

١- فهو في (سبيل الله) نقي زكي لا غش فيه، ولا حظ نفس أو طلبا للمصلحة أو الدنيا.
٢- كلمة تستخدم للدلالة على المتطوعين، ثم اختفى اللفظ لتحلَّ محلَّه كلمة المتطوعين.
٣- وفيات الأعيان (٧/ ١٧٩).

علينا من هذا الفتح العظيم»[١]. وجماعة من علماء المقادسة[٢]، وكذلك الفقيه ضياء الدين الهكاري، وأخوه الشيخ ظهير الدين، والفقيه الشيخ عز الدين عبد الهادي بن شرف الإسلام[٣]، والشيخ الصوفي إسماعيل الأرموي المكبس، والفقيه الحنفي علم الدين الأسفوني المصري، وجمال الدين أبو علي بن رواحة الحموي[٤]، وغيرهم من العلماء والصالحين رحمهم الله جميعًا).

(٢) تحييد الخصوم والتورع في دماء المخالف من المسلمين، وكان نور الدين وصلاح الدين من خير أمثلة قادة المسلمين في الورع رحمهما الله، وسيرهم شاهدة بذلك.

(٣) الدور الفعَّال للأدباء والشعراء في تخليد المعارك وتصويرها، وحثَّ

١- الروضتين (٣/٢٩٧).

٢- ذكر ابن كثير في وفيات سنة (٦٠٧ هـ) أبو عمر محمد بن أحمد المقدسي أخو الشيخ موفق الدين بن قدامة، قائلًا: «وكان هو، وأخوه، وابن خالهم الحافظ عبد الغني، وأخوه الشيخ العماد لا ينقطعون عن غزاة يخرج فيها الملك صلاح الدين إلى بلاد الفرنج، وقد حضروا معه فتح القدس الشريف وغيرها، وجاء الملك العادل أبو بكر يومًا إلى خيمتهم لزيارة الشيخ أبي عمر، وهو قائمٌ يصلي، فما قطع صلاته ولا أوجزها، بل استمر فيها...».

٣- قال عنه ابن رجب في «ذيل طبقات الحنابلة» (٢/٣٧٧): «بارز فارسًا من الإفرنج، فضربه بدبوس فقطع ظهره، وظهر الفرس فوقعا جميعًا، وكان في صحبة أسد الدين شيركوه إلى مصر».

٤- قال ابن الأثير في «الكامل» (١٠/٧٣): «وهو من أهل العلم، وله شعر حسن، وما ورث الشهادة من بعيد، فإن جده عبد الله بن رواحة، صاحب رسول الله ﷺ، قتله الروم يوم مؤتة، وهذا قتله الفرنج يوم عكا، وقتلوا غيره».

القادة والجند على الإقدام، والاستهلال بالبشريات، والتفاؤل بالخير[١].

(٤) تولية أصحاب الكفاءات.

(٥) العناية ببناء المدارس الشرعية، وهي تمثل المحاضن العلميّة والفكرية، والتي ساهمت في خروج جيل التمكين وعلى رأسهم صلاح الدين فهو تلميذ ابن عساكر، والحافظ أبي طاهر السِّلفي، والقطب النيسابوري، وغيرهم كما مرَّ ذكرهم.

إنَّ العلم خير سبيل في قيام الدول، ونصرة الدين، كما قال الإمام أبو حنيفة للإمام إبراهيم بن الأدهم: «إنَّك رزقت من العبادة شيئًا صالحًا فليكن العلم من بالك؛ فإنَّه رأس العبادة، وبه قوام الدين»[٢].

وقال محمد بن عيسى الدامغاني: سمعت ابن عيينة يقول: «تدرون ما مثل العلم؟ مثل العلم: مثل دار الكفر ودار الإسلام، فإن ترك أهل الإسلام الجهاد جاء أهل الكفر فأخذوا الإسلام، وإن ترك الناس العلم صار الناس جهالًا»[٣].

١- وهذا العامل يحتاج لكتابة كتاب فيه.

٢- مسند إبراهيم بن الأدهم (٤٦)، تحتاج الأمة العلم النافع أكثر من أي شيء، لا سيَّما في زماننا هذا الذي كثرت فيه الفتن، وعمَّت البدع، وظهر الشقاق والافتراق، ومن هنا تعلم فائدة قول الإمام أحمد بن حنبل الشيباني كما في «طبقات الحنابلة» (١/١٤٦): «الناس يحتاجون إلى العلم مثل الخبز والماء؛ لأنَّ العلم يُحتاج إليه في كل ساعة، والخبز والماء في كل يوم مرة أو مرتين».

٣- تهذيب الكمال (١١/١٩٣)، و«حلية الأولياء» (٨/٢٨١).

(٦) **تولية العلماء واعطاءهم مكانتهم** (القاضي عبد الرحيم البيساني، والعماد الاصفهاني، وابن الزكي، وابن النجا الدمشقي الواعظ، وابن قدامة، وسبط ابن الجوزي، وغيرهم الكثير...).

(٧) **استجلاب العلماء والعناية بهم** (كالمقادسة مثلًا، وإنزالهم في غوطة دمشق).

(٨) **الهدف المرسوم والمشروع الواضح**، فلم تكن حياة الملك العادل نور الدين ومن بعده صلاح الدين مليئة بالملذات والعبثية التي تسلمت مقاليد الحكم فعاثت في الأرض الفساد؛ بل حياة القائد الزاهد التي يسودها وضوح الهدف، وعمق التفكير.

(٩) **السعي لوحدة الأمة الإسلامية**، وهذا ما فعله كلا القائدين، وذلك بإزالة حكم العبيدين (الفاطميين زورًا وكذبًا) والخطبة للخليفة العباسي.

(١٠) **الإسهامات التي كان يقدمها الخطباء والوعاظ** في الحث على الجهاد، وإنكار المنكرات، والدعاء للمجاهدين، ومن ذلك على سبيل المثال: أنَّ برهان الدين البلخي أنكر على الملك نور الدين في استعانته في الحروب بأموال المكوس، وقال: «كيف تنصرون وفي عساكركم الخمور والطبول والزمور؟!»[١].

١- زبدة الحلب (٢/٤٧٦).

وقيل: أنَّ سبب وضع المكوس عن النَّاس أنَّ الواعظ أبا عثمان المنتخب بن أبي محمد الواسطي -وكان من الصالحين الكبار- أنشد نور الدين:

مَثِّلْ وُقُوفَكَ أَيُّهَا الْمَغْرُورُ ... يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاءُ تَمُورُ
إِنْ قِيلَ نُورُ الدِّينِ رُحْتَ مُسَلِّمًا ... فَاحْذَرْ بِأَنْ تَبْقَى وَمَا لَكَ نُورُ
أَتَهَيْتَ عَنْ شُرْبِ الْخُمُورِ وَأَنْتَ مِنْ ... كَأْسِ الْمَظَالِمِ طَافِحٌ مَخْمُورُ
عَطَّلْتَ كَاسَاتِ الْمُدَامِ تَعَفُّفًا ... وَعَلَيْكَ كَاسَاتُ الْحَرَامِ تَدُورُ
مَاذَا تَقُولُ إِذَا نُقِلْتَ إِلَى الْبِلَى ... فَرْدًا وَجَاءَكَ مُنْكَرٌ وَنَكِيرُ
وَتَعَلَّقَتْ فِيكَ الْخُصُومُ وَأَنْتَ فِي ... يَوْمِ الْحِسَابِ مُسَحَّبٌ مَجْرُورُ
وَتَفَرَّقَتْ عَنْكَ الْجُنُودُ وَأَنْتَ فِي ... ضِيقِ اللُّحُودِ مُوَسَّدٌ مَقْبُورُ
وَوَدِدْتَ أَنَّكَ مَا وَلِيتَ وِلَايَةً ... يَوْمًا وَلَا قَالَ الْأَنَامُ أَمِيرُ
وَبَقِيتَ بَعْدَ الْعِزِّ رَهْنَ حُفَيْرَةٍ ... فِي عَالَمِ الْمَوْتَى وَأَنْتَ حَقِيرُ
وَحُشِرْتَ عُرْيَانًا حَزِينًا بَاكِيًا ... قَلِقًا وَمَا لَكَ فِي الْأَنَامِ مُجِيرُ
أَرَضِيتَ أَنْ تَحْيَا وَقَلْبُكَ دَارِسٌ ... عَافِي الْخَرَابِ وَجِسْمُكَ الْمَعْمُورُ
أَرَضِيتَ أَنْ يَحْظَى سِوَاكَ بِقُرْبِهِ ... أَبَدًا وَأَنْتَ مُبَعَّدٌ مَهْجُورُ
مَهِّدْ لِنَفْسِكَ حُجَّةً تَنْجُو بِهَا ... يَوْمَ الْمَعَادِ لَعَلَّكَ الْمَعْذُورُ

فلما سمعها الملك نور الدين بكى، وأمر بوضع المكوسات والضرائب في سائر بلاده.

وهذه الأفعال والخصال التي يرجى لصاحبها أن يؤسس دولة مسلمة قوية بإذن الله، فالتاريخ عبرة وعظة، والعاقل من يجاري العقلاء ويتشبه بهم.

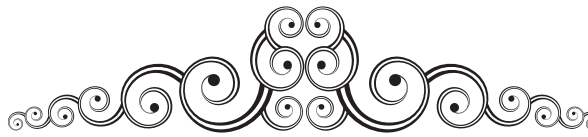

أهم أعماله وخصائص دولته

توحيد مصر والشَّام.

فتح البيت المقدس وتطهيره من رجس الكفار والأشرار.

يَا بهجةَ الْقُدسِ إِنْ أضحى بِهِ عَلَمُ الـ ... ـلْإِسْلَام من بَعْدِ طَيٍّ وَهُوَ مُنْتَشَرُ
يَا نور مَسْجده الْأَقْصَى وَقد رفعت ... بعد الصَّلِيب بِهِ الْآيَات والسُّوَرُ
شَتَّانَ مَا بَين ناقوسٍ يُدَانُ بِه ... وَبَين ذِي مَنْطِقٍ يُصْغِي لَهُ الْحَجَرُ
اللهُ أَكْبرُ صَوتٌ تَقْشَعِرُ لَهُ ... شُمُّ الذُّرى وتكادُ الأَرْضُ تَنْفَطِرُ[1]

الانتصارات العسكرية والفتوحات البلدانية الكبيرة.

زوال دولة الفاطميين كما هو معلوم.

قال ابن كثير: «ومن الغريب أنَّ العاضد في اللغة: القاطع، ومنه الحديث: (لا يُعضَد شجرها)، فبالعاضد قُطعت دولة بني عبيد».

وقال ابن خلكان: سمعت جماعة من المصريين يقولون: إنَّ هؤلاء القوم أوائل دولتهم قالوا لبعض العلماء: اكتب لنا ألقابًا في ورقة؛ تصلح للخلفاء؛ حتى إذا تولى واحد لقبوه ببعض تلك الألقاب، فكتب لهم

١- الروضتين (٣/٤٠٩).

ألقابًا، وآخر ما كتب في الورقة «العاضد». فاتفق أنَّ آخر من ولي منهم العاضد[١].

السير على خطا نور الدين في الدعوة والفتح ونشر العلم، ورعاية المسلمين، وجمع الجهود لتحرير بيت المقدس.

أَحْيَا الَّذِي قدْ سَنَّ نوُر الدِّينِ وَزَاد مَا أمْكَنِ مِنْ تحْسِنِ

العناية بنظام الجيش، فكان الجيش الذي يقوده جيشًا عظيمًا في المشرق.

محيه البدع اللعينة، وبسط العدل، ونشر الأمن، ومنع المكوس[٢].

عدم تولية غير المسلمين. كما قال ابن مفلح: «وكان صلاح الدين وأهل بيته يذلون النصارى ولم يكونوا يستعملون منهم أحدًا، ولهذا كانوا

١- البداية والنهاية (١٦/٤٥٠)، و«حسن المحاضرة» (٢/٣١)، و«سيرة الملك العادل» (ص٣٣٦-٣٣٧).

وفي «الروضتين» (٢/٢١٤-٢١٥): «وَقد ذكر جمَاعَة من أكَابِر الْعلمَاء أَنهم لم يَكُونُوا لذَلِك أَهلًا وَلَا نسبهم صَحِيحًا، بل الْمَعْرُوف أَنهم بَنو عبيد.

وَكَانَ وَالِد عبيد هَذَا من نسل القدَّاح الملحد الْمَجُوسِيّ، وَقيل: كَانَ وَالِد عبيد هَذَا يَهُودِيّا من أهل سَلَمْية من بِلَاد الشَّام، وَكَانَ حدادًا، وَعبيد هَذَا كَانَ اسْمه سعيداً، فَلَمَّا دخل الْمغرب تسمى بعبيد الله، وَزعم أَنَّه علويٌّ فاطميٌّ وَادّعى نسبًا لَيْسَ بِصَحِيح، لم يذكرهُ أحد من مصنّفي الْأَنْسَاب العلويَّة، بل ذكر جمَاعَة من الْعلمَاء بِالنّسَبِ خِلَافه، ثمَّ ترقت بِهِ الْحَال إِلَى أَن ملك وَتسَمى بالمهدي وَبني المهدية بالمغرب ونسبت إِلَيْهِ وَكَانَ زنديقاً خبيثاً عدوًّا لِلْإِسْلَامِ، متظاهراً بالتشيع متستّراً بِهِ، حَرِيصًا على إِزَالَة الملّة الإسلامية؛ قتل من الْفُقَهَاء والمحدثين وَالصَّالِحِينَ جمَاعَة كَثِيرَة، وَكَانَ قَصده إعدامهم من الْوُجُود، ليبقى الْعَالم كَالْبَهَائِمِ، فيتمكن من إِفْسَاد عقائدهم وضلالتهم ﴿وَاللهُ مُتِمّ نوره وَلَو كره الْكَافِرُونَ﴾».

٢- انظر رحلة ابن جبير (ص٢٩).

مؤيدين منصورين على الأعداء مع قلة المال والعدد، وإنما قويت شوكة النصارى والتتار بعد موت العادل حتى قام بعض الملوك أعطاهم بعض مدائن المسلمين وحدثت حوادث بسبب التفريط فيما أمر الله به ورسوله. فإن الله تعالى يقول: ﴿ولينصرنَّ اللهُ مَنْ ينْصُره﴾ [الحج: ٤٠]»[١].

وهو أول من استخدم الخصيان في المسجد النبوي والمسجد المكي بالحرمين الشريفين. وإنَّما كان القائمُ بخدمةِ الكعبة الشريفة والحجرة المنيفة في أيام الخلفاء والدولة العباسية الفقهاء والصوفية وأهل العلم والفضل. وهؤلاء الطواشية حادثون في آخر دولة الأكراد بني أيوب في أيام نور الدين الشهيد بواسطة بعض الخدام الطواشية الذين في خدمته. سعى في ذلك واستعان ببعض الوزراء فأجابه السلطان إلى ذلك وجعل اثني عشر طواشياً لا غير. وشرط أن يكونوا حفاظاً للقرآن العظيم وربع العبادات، وأن يكونوا حبوشاً، وإن لم يكن فأروماً، فإن لم يكن وعدموا فتكاررة، وإن لم يوجد فهنود. واستروا مدة ثم صار الشرط باطلاً حتى صار غالبهم من أخس الأجناس الهنود[٢].

١- الآداب الشرعية والمنح المرعية (٢/٤٤٨).

٢- تحفة المحبين والأصحاب في معرفة ما للمدنيين من الأنساب (ص٥٤).

وفي الختام: إنَّ الأمة التي أخرجت صلاح الدين، وهي أسوأ من حالنا اليوم حالاً، وأشد انقسامًا، وأكثر عيوبًا، لا تعجز عن أن تخرج اليوم مثل صلاح الدين.

إنَّ نكبة فلسطين بالصليبين كانت أشد بمئة مرة من نكبتها بإسرائيل، وقد مرَّت بسلام، فهل تشكون في أنَّنا سننقذ فلسطين، أمَّا أنا فوالله الذي لا إله إلا هو، لو بقي على وجه الأرض أربعون مسلمًا، لما شككت في أنَّهم يستردونها، وإنِّي لأشك فيمن يشك في هذه الحقيقة، أشك في إدراكه لطبيعة هذه الأمة، أشك في عقله، أشك في أنَّه عربي وأنه مسلم.

وإذا عجزنا نحن أن نعود إلى مثل سيرة صلاح الدين ليكتب لنا مثل نصر حطين، فيستخرج من أصلابنا، من هم أنقى منا وأظهر، وسيستردون فلسطين[١].

والعاقل من جارى العقلاء في أعمالهم في دائرة دينه وقوميته ووجدانه، والحازم من لم يرض لنفسه أخس المنازل، وأخس المنازل للرجل منزلة القول بلا عمل، وأخس منها أن يكون الرجل كالدفتر يحكي ما قال الرجال وما فعل الرجال دون أن يضرب معهم في الأعمال الصالحة

١- رجال من التاريخ (ص٢٢٣-٢٢٤).

بنصيب، أو يرمي في معترك الآراء بالسهم المصيب[١].

إنَّ المسلم كالشمسِ إذا غربت في جهةٍ، طلعت في جهة أخرى، فلا تزال طالعة[٢].

يا نَاظِرًا في الخُطُوطِ بعْدِي ... مُجْتَنِيًا مِنْ ثِمارِ جُهْدِي

بِيَ افْتِقارٌ إلى دُعاءٍ ... تُهْديهِ لِيَ في ظَلامِ لحَدِي[٣]

ولسان حال كاتبهِ قولُ الإمام ابن قيم الجوزيَّة ﷺ في مقدمة كتابه «روضة المحبين»: «والمرغوبُ إلى من يقفُ على هذا الكتابِ أن يعذرَ صاحبه، فإنَّه علَّقهُ في حالِ بعدهِ عن وطنهِ[٤]، وغيبته عن كتبه، وما عسى أنْ يبلغ خاطره المكدود، وسعيه المجهود مع بضاعته المزجاة التي حقيقٌ بحاملها أنْ يُقالَ فيه: «تسمع بالمعيدي خير من أنْ تراه»[٥] وها هو قد نصب نفسه هدفاً لسهام الراشقين، وغرضاً لألسنَّة الطاعنين، فلقاريه غنمُه، وعلى مؤلفه غرمُه، وهذه بضاعته تعرض عليه، ومولیته[٦] تهدى إليك، فإن صادفت كفؤاً كريماً لها لن تعدم منه إمساكاً بمعروفٍ، أو تسريحاً بإحسان، وإن صادفت غيره، فالله تعالى المستعان، وعليه

١- من كلام الشيخ البشير الإبراهيمي كما في «مجموع آثاره» (٥٦/١).
٢- روائع إقبال (ص٩٥) ط: ابن كثير.
٣- المنتخب من معجم شيوخ السمعاني (١٠٨٨/٢).
٤- كغربتنا وهجرتنا، والحمد لله.
٥- ذكره الميداني في «الأمثال» رقم (٦٥٥)، وقال يضرب: «لمن خبره خيرٌ من مرآه».
٦- قوله: (موليته) أي فضله ونعمه.

التكلان.

وقد رضي من مهرها بدعوةٍ خالصة إن وافقت قبولاً واستحساناً، وبردٍّ جميل إن كان حظها احتقاراً واستهجاناً[١]، والمنصف يهب خطأ المخطئ لإصابته، وسيئاته لحسناته.

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد ألا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

اللهم اجعل ما كتبته في ميزان حسناتي ووالدي وأهله، وانفع به كلَّ من دلَّ عليه أو ساهم بنشره.

وكتبه الفقير لعفو ربه:

أبو إسحاق محمود بن أحمد الزويد الجزري

لعام ١٤٤٤ هـ

٢٠٢٣م

١-قوله: (استهجاناً) استهجنه: استقبحه.

(مفكرة الفوائد)

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

ممَّا صدر للمؤلِّف من الكُتب والأبحاثِ –بحمدِ اللهِ–

* إسعاف اللبيث بصور من علو الهمة عند أهل العلم وأصحاب الحديث
* تكريم الأمراء وذوي السلطان لأهل العلم والفضل على مر الزمان.
* إبهاج الطالبين بقطوف من ألقاب من المحدثين. ط: دار اللؤلؤة.
* احترام العلماء وتوقيرهم (أهل الحديث أنموذجًا). ط: دار اللؤلؤة.
* لذة العلم والسماع عند المحدثين والعلماء. ط: دار اللؤلؤة.
* صور من جهاد العلماء. ط: الكتاب العالمي.
* معالم في رواية الحديث الضعيف والاستشهاد به. مجلة رواء.
* الإمام أحمد وكتابه المسند. الألوكة.
*عبير الزهور بتراجم علماء قبيلة الجبور. مصورات النجدي.
* أدب إعارة الكتاب واستعارته. شبكة الألوكة.
* شرح الأربعين التدبريَّة في مراتب أخذ القرآن. مركز تدبر.

من الكتب التي رفعت على الشبكة ومواقع التواصل

* التعليق على رسالة الإلحاد للعلامة محمد الخضر الحسين.
* التبرج صوره أسبابه ومظاهره.
* شرح كلام شيخ الإسلام ابن تيمية بذكر الصفات الثلاثة التي يحتاجها الداعية والمحتسب.

يصدر بعون الله

* الرسائل التربوية والعلمية لطالب العلم.

* رسائل الحياة الزوجية.

* حرص السلف على هداية العصاة والرفق بهم.

* نجدة المستغيث بتقريب فتح المغيث بشرح ألفية الحديث.